اللغة الشعرية بين نمطية نحو الجملة وتعددية نحو النص

❑ د.محمد عبدو فلفل*

مدخل

يسعى هذا البحث إلى مقاربة فرضية،مفادُها أن خصوصية التشكيل اللغوي التي تستدعيها طبيعة الفنون القولية لا تعني بالضرورة التخلي عمَّا تمليه المرجعية اللغوية المجتمعية ممثلة

بالمفهوم المثالي المجرد للظاهرة اللغوية بقدر ما تعني استثماراً شخصياً مكيِّفا للطاقات الكامنة في هذه المرجعية(١) على نحو يسلم بأن تلك الخصوصية المفروضة في الفنون القولية بحكم طبيعة الأشياء ماهية ووظيفة تعني في المقام الأول أن يُخْتار من هذه الطاقات الكامنة في تلك المرجعية ما يحقق لفنون القول هذه الخصوصية، ولكن لا تعني تدمير مكونات هذه المرجعية، أو تخريبها أو التخلي عنها.

وتتوسَّل هذه الدراسة في مقاربتها التنظيرية لمقولتها تلك باستثمار بعض معطيات نحو النص واستثمار طبيعة العلاقة القائمة بين ما يعرف بنحو الجملة المعني بتحديد أنماط الجمل والتراكيب في هذه اللغة أو تلك، وبين نحو النص نفسه الذي يقوم فيما يقوم عليه على الإفادة من منجز نحو الجملة بالمفهوم العام للنحو، وهي إفادة تراعي كون النص بمفهوم إجرائي بنية لغوية دالة متماسكة محكومة في إنجاز وظيفتها الفنية والدلالية بقانون خاص بها ، يعني أن تتساند مكونات النص في إنجاز مهمته، كما يُسوِّغ هذا القانون

---

*عضو هيئة التدريس في قسم اللغة العربية، جامعة البعث، كلية الآداب الثانية.

(١) وهو واحد من مفهومات متعددة للأسلوب ،وهي أنه انحراف عن القاعدة، أو أنه تواتر ،أو تواطؤ على قالب تركيبي، أو أنه استغلالٌ خاصٌ لممكنات النحو . انظر: نظرية اللغة في النقد العربي ٤٨١ -٤٨٢.واللغة والخطاب الأدبي ٤١، ٥٢.

الخاص بالنص أن تُـفَسَّـر مكوناته فنياً ودلالياً في ضوء العلاقة البنائية التكاملية القائمة فيما بينها، وذلك بمراعاة القرائن المكونة لسياق إنجاز النص بتجلياتها اللغوية والاجتماعية والنفسية و المقامية العامة.

اللغة بين الموضوعية والنسبية:

من المسلم به في الدرس اللساني التفريق بين مفهومين مختلفين متداخلين للغة عامة، مفهوم مثالي نظري مجرد قابع في عقل الجماعة اللغوية ومستوحى أصلاً من ممارسة هذه الجماعة للغة نفسها، ومفهوم عملي إجرائي، يتمثل بالاستثمار الفعلي لمنظومة القواعد والأحكام التي تُكَوِّن ذلك المفهومَ المثاليَ المجردَ للغة، ومن المعروف أن هذا التفريق بين هذين المفهومين للغة تَمَثَّـل في الدرس اللساني الحديث على مستوى الجملة، أو على مستوى النص بثنائيات مصطلحية[١]، منطلقُـها ثنائية اللغة والكلام عند سوسير، ثم تتالت ثنائيات المثال اللغوي والاستعمال اللغوي عند سابير، والرمز والرسالة عند ياكبسون، والكفاءة أو السليقة والأداء عند تشومسكي، والنظام والنص أو الحدثان عند هايمسليف واللغة والخطاب عند جيوم، وجملة النظام، وجملة النص عند ليوينز.

وهذه الثنائيات المصطلحية على ما للسياقات المعرفية الثقافية التي أفرزتها من خصوصية تؤكد كلها إيمانَ اللسانيين عامة بأن نظام اللغة الافتراضي[٢]على لسان المستعمل الفرد في أكثر الاستعمالات نفعية يتنازعه بعدان متناقضان، بعـدٌ موضوعي، وبعـدٌ ذاتي، واللغة في ذلك محكومة تنفيذيا في المقام الأول بـ(الحقيقة الواضحة – كما يقول شبلنر – وهي أن ظواهر الكلام بوصفها تحقيقات فردية شخصية تنحرف بدرجة مؤكدة عن الوصف العام لنظام اللغة ... ومن الوجهة النظرية لا بد من وجود فروق بين النظام اللغوي "المعيار" وظواهر الاستعمال اللغوي " الأداء")[٣]واللغة في الوقت نفسه تتجلى بأنساق(تصاغ صياغة واضحة من قواعـدَ متواضع عليها، ومن شأنها أن تحـدِّد نوع السلوك اللغوي كما يظهر هو ذاته في استعمال العبارة الكلامية في كل موقف ومقام تواصلي، وقولنا :إن هذه القواعد متواطأ عليها إنما نعني به أنها مشتركة بين أفراد جماعة لسانية معينة)[٤]

على أن هذه القواعد ليست في كل مستويات اللغة أو نظمها على درجة واحدة من الصرامة وانتفاء حرية المتكلم في ممارسته لها، فقواعد التوليف كما يُبَيِّن ياكوبسون متفاوتة من حيث الصرامة، أومن حيث

---

[١] لهذه الثنائيات متفرقة انظر: علم اللغة ٢١٠، ٢١٦ –٢٢٠، واكتساب اللغة١٤. وفصول في علم اللغة العام ٢٣، ٤٠والألسنية٤٣، ٤٤، ٢٢٧ واللغة واللغويات٢٠٦ –٢١١، وعلم لغة النص٢١، ٣٢، ٣٦، ٢٣٧والإبداع الموازي ٣٣ –٣٤ واللغة والكلام في التراث النحوي العربي ٦٩ –٧٢، واللغة والإبداع الأدبي ٢٢وأصول تحليل الخطاب١/٢٨ –٥٨، ٩٣.

[٢] انظر: النص والخطاب والإجراء ٨٩، ٩٤، ٩٧ –٩٩. وعلم اللغة والدراسات الأدبية٧١ –٧٢، ووظيفة الألسن وديناميتها١٥٧.

[٣] علم اللغة والدراسات الأدبية ٦٨

[٤] النص والسياق ١٧

انتفاء حرية المتكلم في الممارسة، وهذه الصرامة تتراوح من الانتفاء التام للحرية، ويكون ذلك في مستوى التوليف بين السمات التمييزية للصوتم، وفي مستوى التوليف بين الصواتم للحصول على الكلمات إلى منزلة بين بين في تركيب الجمل بالكلمات ، فإلى منزلة تتعطل فيها القيود التركيبية الإعرابية، ويكون ذلك عند التوليف بين أكبر الوحدات، أي بين الجمل في شكل خطاب[١] وهذا يعني أن اللغة في طبيعة قواعدها قائمةٌ على جدلية العلاقة بين الذاتي والموضوعي، مما يسمح للمتكلم بأن يُسبِغ على كلامه بغض النظر عن وظيفة خطابه من الصبغة الشخصية ما يجعل هذا الخطاب مزيجاً من البعدين الموضوعي والذاتي، ذلك أن المُنْجَزَ الكلامي للفرد محكوم بتصوره الشخصي للمفهوم المثالي المجرد لنظام اللغة ،لذا لوحظ أن(نظام اللغة تركيب مثالي لا نصيب له من الواقعية)[٢]مما يوحي بصراع، طرفاه النظام اللغوي المجتمعي، والفرد المستثمر لقواعد هذا النظام، وقد عرض لوسركل لمعالم هذا الصراع قائلا(إن تجربتنا في اللغة ... هي عبارة عن حل وسط بين قطبي تناقض، فمن جانب أنا أدرك تماماً أنني أنا الذي أتكلم اللغة ... ومن جانب آخر في اللحظة التي أدرك فيها حقيقة سيطرتي على اللغة يزحف إلى وعيي شيءٌ من القلق ، وتأتي زلة لسان ، أو لـحْنٌ في التركيب النحوي، أو الالتفاتُ من تركيب إلى تركيب داخل الجملة، يأتي كلُّ ذلك ليذكرني أن اللغة هي التي تتكلَّم حتى عندما أكون في أصفى حالاتي العقلية، فمن جهة أجد اللغة كياناً ماديا ملموساً، بينما من الجهة الأخرى أجدها شيئاً مجرداً دون وجود مادي، من جهة تسمح اللغة بالتعبير الفردي بينما هي من جهة أخرى مؤسسة، لا تسمح إلا بالمعاني)[٣]ويرى لوسركل أن إشكالية هذا التناقض يمكن تَفهُّـمَها وحلُّها في ضوء ثنائية سوسير القائمة على التقابل بين اللغة والكلام، يقول لوسركل(إن الحدس الذي يعتمده الحدس السليم يمكننا من تصور العلاقة بين متـكلـمٍ فردٍ وبين نظام مجرد، وهذا ما يصوره سوسير في ثنائية نظام اللغة /الكلام الفردي، وهذا سيحوي قطبي التناقض الأول الذي بسطْتُه ؛ اللغة تتكلم – أنا أتكلم)[٤] .

ولهذا البعد الموضوعي للغة يؤكد المعنيون أنها في أدائها لرسالتها(أداة ليست حيادية ... كما أنها ليست مجرد أداة للتواصل، ففي اللغة الكثير من الترسبات)[٥]فاللغة (مجموعة من الكلمات المشحونة بقوة الرغبات والأحقاد والحب ومشاعر الذنب)[٦] فالتراث (ينزع إلى فرض نفسه على الفرد من خلال قاموسه المترع بمعان ذابلة)[٧]والحقيقة أن لهذه الترسبات ولتلك المعاني الذابلة أثراً في تعذر إخضاع المتكلم للغة إخضاعا مطلقاً لما

---

[١] انظر: أصول تحليل الخطاب ٥٢/١ ،

[٢] عنف اللغة ٣٢٨.

[٣] عنف اللغة ٢٠٨وانظر: ٢١٠ -٢١١.

[٤] عنف اللغة ٢١٢. وانظر: ٤٥٩.وانظر أيضاً : اللغة والإبداع ٤٣ .

[٥] عنف اللغة ٣٧٣ وانظر: نظرية التلقي ٢٩ .

[٦] عنف اللغة ٤١٣

[٧] حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر ١٤٧

يريد أن يؤديه من المعاني ، مهما قيل عن أهمية قدرة تضافر القرائن السياقية على تحديد المعنى، ذلك أن الإنسان على ما للغة من بعد موضوعي لا يندر أن تربطه بكلماتها تجارب شخصية، تجعل هذه الكلمات مصدراً لإيحاءات، لا تقوى القرائن على إبعادها (فالكاتب يصوغ النص حسب معجمه الألسني، وكل كلمة في هذا المعجم تحمل معها تاريخا مديدا ومتنوعا ، وعى الكاتب بعضه ، وغاب عنه بعضه الآخر، ولكن هذا الغائب إنما غاب عن ذهن الكاتب، ولم يغب عن الكلمة التي تظل حبلى بكل تاريخاياتها، والقارئ حينما يستقبل النص فإنه يتلقاها حسب معجمه، وقد يمده هذا المعجم بتواريخ للكلمات مختلفة عن تلك التي وعاها الكاتب حين أبدع نصه، من هنا تتنوع الدلالة ، وتتضاعف، ويتمكن النص من اكتساب قيم جديدة على يد القارئ، وتختلف هذه القيم ، وتتنوع بين قارئ وآخر، بل عند قارئ واحد في أزمنة مختلفة)[١]وكل ذلك يشي بحقيقة مفادها أن اللغة ليست دائماً أداة تعبيرية أمينة،أو دقيقة وحيادية في إيصال المعاني، بله الأحاسيس والمشاعر، فـ(اللغة لم تُجْعَلْ لِتُعَوِّض الموجودَ، إنما جُعِلَتْ لِيُتَوَسَّل بها على استدعائه واستحضاره ، فالقول لا يمكن بحال أن يكون كمشاهدة العيان، فأنت مُحَصِّل بالثانية ما لا تحصله بالأول)[٢] ولعل من الأسباب الرئيسة لذلك خضوع اللغة الدائم لعاملين متنازعين متصارعين، هما بعداها الذاتي والموضوعي .

على أن خصوصية الخطاب اللغوي على لسان صاحبه لا تتأثر بمعارفه وتجاربه اللغوية فحسب، بل تتأثر أيضاً بوظيفة هذا الخطاب، ذلك أن(نظام اللغة يختلف باختلاف المقاصد)[٣] علماً أن النص اللغوي كما سنلاحظ لا يقتصر على وظيفة واحدة، بل تتعدد وظائفه مع هيمنة إحدى هذه الوظائف على سائرها،وإذا كانت طبيعة المستوى اللغوي تتأثر معالُمها بطبيعة الوظيفة المنوطة بهذا المستوى أدركنا أن تحديد معالمه بدقة ليس متيسراً دائما، ذلك أن التفريق بين وظائف اللغة المتداخلة ليس بالأمر اليسير، وهذا ما أرجو أن تتضح معالمه أكثر في الحديث التالي عن اللغة بين الاستعمال النفعي العادي (Normal usageوالاستعمال الأدبي الفني(Artistic usage)أو بين اللغة النمطية(standard language)واللغة الشعرية (poetic language)

اللغة بين الاستعمال العادي النفعي والاستعمال الأدبي .

بات من الراجح أن بين التشكيل اللغوي للخطاب ومضمونه تلاحماً عضوياً يحول دون فصل أحدهما عن الآخر، و يفسر في الوقت نفسه ما لكل منهما من أثر في تحديد خصوصية معالم صاحبه وآفاقه

---

(١) الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ٧٩وانظر٥٧ منه. و راجع : اللغة الفنية ؛ مقدمة المترجم ١٨ ، والنقد اللغوي عند العرب ٢٣١ -٢٣٢، وأسلوبية الفرد ١٥٦.

(٢) أصول تحليل الخطاب١/ ١٦٦

(٣) النقد العربي ، نحو قراءة ثانية ٢١٧

ومكوناته[١]، ولا شك أن هذا التلاحم بما له من تبعات على كل من مضمون الخطاب وتشكله اللغوي يضيف عاملاً آخر إلى العوامل التي تتحكم بطبيعة العلاقة بين نظام اللغة النظري المجرد والكلام المسْتَثْمِر للقواعد و الأحكام التي يقوم عليها ذلك النظام، تلك العلاقة القائمة كما اتضح قبل قليل على الصراع بين الذاتي والموضوعي، وفي ضوء هذه العوامل يُنْظَرُ في المعالم الأسلوبية التي يمتاز بها تشكل الخطاب اللغوي، ولعل أبرز تجليات هذه القضية عند المعنيين قديماً وحديثاً تمثلت بالتفريق بين مستويين لغويين، فقد كانت للفلاسفة وأئمة اللغة والأدب العرب والمسلمين كعبد القاهر الجرجاني وابن رشد وابن سينا وغيرهم جهود[٢] قاربوا فيها فكرة التفريق بين المستوى العلمي النفعي في استعمال اللغة والمستوى الأدبي الفني الجمالي لهذا الاستعمال، ولا شك أن الجرجاني يصدر عن وعيه لهذه الحقيقة[٣]حين يقول(العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم ، وليس هو مما يستنبط بالفكر، ويستعان عليه بالروية، فليس أحدهم بأن إعراب الفاعل الرفع ، أو المفعول النصب، أو المضاف إليه الجر بأعلم من غيره، ولا ذاك مما يحتاجون فيه إلى حدة ذهن وقوة خاطر، إنما الذي تقع فيه الحاجة إلى ذلك العلم بما يوجب الفاعلية للشيء إذا كان إيجابها من طريق المجاز، كقوله تعالى: فما ربحت تجارتهم، وكقول الفرزدق : سقته خروق في المسامع وأشباهِ ذلك مما يُـجْعَـل الشيء فيه فاعلاً على تأويل يـدُقُ، ومن طريق تلطف، وليس يكون هذا علماً بالإعراب، ولكن بالوصف الموجب للإعراب)[٤] فالجرجاني يصدر في هذا النص عن وعيه بحقيقة، مفادها أن للغة مستوى تواصليا نفعيا، لا يحتاج معه المرء إلى أكثر من معرفة قواعد اللغة البسيطة، ومستوى جماليا أدبيا به يتفاضل الناس، وتُـخْـتَـبَـر قدراتهم على استثمار طاقات اللغة الجمالية .

وقد كانت هذه القضية أيضا من معنيات المحدثين الذين اتضح لديهم بجلاء أن (من أنواع الخطاب الرئيسية الخطاب العلمي الذي يمتاز بخلوه من الإيحاء والتراكم، وطاقة الإخبار فيه مهيمنة، وهو مَحَـدَّدُ الدلالة، وغير قابل للاشتراك والترادف، كما أن تراكيبه غير مكررة، ولا تعيد نفسها، وهي تجنح إلى الدقة في استعمال المصطلح الخاص بالحقل العلمي، تغوص فيه ، كما يقوم الخطاب العلمي على نمو المعنى

---

[١] انظر: مفاهيم نقدية ٥٠ -٦٣ ولاسيما ص ٦٠ -٦١، ونظرية الأدب ١٩٢ -١٩٣.

[٢] وممن عني بالكشف عن هذه الجهود من المحدثين الدكتور عبد الحكيم راضي في "نظرية اللغة في النقد العربي" الذي عني بالكشف عن جهود العرب في نظرية اللغة الأدبية ، والدكتور مصطفى ناصف في"اللغة بين البلاغة والأسلوبية " ٢٦، ٢٤٩، ٢٥٢ - ٢٥٤ .والدكتور صلاح رزق في" أدبية النص" ٥٢والدكتور إبراهيم سلامة في " بلاغة أرسطو بين العرب واليونان " ٥٥ - ٦٣، ٣٦٠ - ٣٦٢وعلاء الدين رمضان السيد في"ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث" ٣٥ -٣٧، والدكتور حسن عبد الله في مقدمة كتاب " اللغة الفنية "

[٣] انظر ما قاله الدكتور مصطفى ناصف عن ذلك في"اللغة بين البلاغة والأسلوبية" ٢٥٢ -٢٥٤، ٢٦١ والدكتور إبراهيم سلامة في "بلاغة أرسطو بين العرب واليونان"٣٦٠ -٣٦٢.

[٤] دلائل الإعجاز ٣٠٢ ، وانظر: نظرية اللغة في النقد العربي ٣٣، ١٧٦.

واسترساله في تشكيل وحيد، ومن مميزات الخطاب العلمي اعتماد المنطقية في عرض موضوعه، ووصفه وتحري الدقة والمنهجية في وصف الظواهر التي يتناولها بالدرس والتحليل، وتجنب ما يثير التأويل، واعتماد دلالة المطابقة، لأنها تجسد علاقة الدال بمدلوله ... أما الخطاب الأدبي فنظام إشهاري دال.. واللغة فيه متكلِّمة عن ذاتها، ومتكلمة عن الأشياء خارجها وفق الصورة التي ترى بها الأشياء .. والخطاب الأدبي لا يمكن أن يكون إلا توسيعاً لبعض خصائص اللغة واستعمالها .. و مميزات الخطاب الأدبي تقوم على خصائص جمالية وأسلوبية وبنيوية وظيفية متنوعة واستثمار الأدلة الصوتية في السياق الشعري، وعبر هذه الخاصية تتشكل رمزية الأصوات، ويتحدد الإيقاع بين الطويل والقصير والبطء والسرعة والإيجابية والسلبية)[١]على أن الواقع لا يقر هذا الفصل الحاد بين وظائف الخطاب، بل يقول بتعدُّد وتداخل هذه الوظائف تعدداً وتداخلاً لا ينفيان هيمنة إحدى هذه الوظائف على سائرها من وظائف الخطاب نفسه هيمنة، يكون لها الدور الأهم في تحديد معالم أسلوب تشكيله اللغوي، وهو ما وضَّحَه ياكبسون الذي يرى أن(أن البنية اللفظية لرسالة ما تتعلق قبل كل شيء بالوظيفة المهيمنة، ولكن أياً كانت هذه الوظيفة المهيمنة فإن مساهمة الوظائف الأخرى ينبغي أن يأخذها اللساني بالحسبان)[٢]يقول ياكبسون (يمكن تحديد الشعرية باعتبارها ذلك الفرع من اللسانيات الذي يعالج الوظيفة الشعرية في علاقاتها مع الوظائف الأخرى للغة، وتهتم الشعرية بالمعنى الواسع للكلمة بالوظيفة الشعرية لا في الشعر فحسب حيث تهيمن هذه الوظيفة على الوظائف الأخرى للغة، وإنما تهتم أيضاً بها خارج الشعر حيث تعطى الأولوية لهذه الوظيفة أو تلك على حساب الوظيفة الشعرية)[٣]

وكلام ياكبسون هذا يفضي إلى حقيقة، مفادها أنه لا وجود في الواقع العملي لخطاب خالص العلمية أو النفعية في شكله ومضمونه كما أنه لا وجود في هذا الواقع لخطاب خالص الفنية والجمالية والأدبية، وغاية ما في الأمر أن مختلف ضروب الخطاب اللغوي تقوم على نسب متفاوتة من العلمية والنفعية، ومن الأدبية والجمالية، ولا شك أن هذه النسب هي التي تحدد موقع الخطاب على سلم تقويم النصوص وتصنيفها إلى علمية ونفعية، وإلى أدبية فنية وجمالية، وهذا ما يمكن أن يوحي به قول فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) (للتركيب المفيد مراتب كثيرة، ولها طرفان وأوساط، فالطرف الأعلى هو أن يقع ذلك التركيب بحيث يمتنع أن يوجد ما هو أشد تناسباً واعتدالاً في ذلك المعنى منه، والطرف الأسفل هو أن يقع على وجه،

---

[١] نحو النص؛ مبادئه واتجاهاته الأساسية ١٤ - ١٥لبوقرة وانظر: نظرية اللغة في النقد العربي ٢٤وما بعدها، و مقالات في الأسلوبية ٩٨ -١٠٠، ١٤٥ -١٥٢، والبنيات الأسلوبية ١١٦واللغة والإبداع الأدبي١٥ والأسلوب؛ دراسة لغوية إحصائية٧٠ -٧٢ مدخل نظري ودراسة تطبيقية١٧ وبناء لغة الشعر ١٤٣، ١٥٢، ١٦٩، ٢١٤، ٢٤٠ -٢٤١. والنقد اللغوي عند العرب ٨ ،١٣ -١٤

[٢] الشعرية والثقافة ٣٣

[٣] قضايا الشعرية ٣٥. وانظر: اللغة والخطاب الأدبي ٥٦ -٥٧، والتحليل اللغوي للنص ١٤، ١٠٨.

لو صار أقل تناسبا منه لخرج من كونه مفيداً لذلك المعنى،وبين هذين الطرفين مراتب متباينة، تكاد تكون غير متناهية، و اختيار أحسنها يقتضي الفصاحة في النظم)[١]و(الإنسان إذا حاول صورة مخصوصة من أصياغ معلومة فلذلك التركيب في الحسن طرفان وأوساط ، فالأعلى أن يقع التناسب بحيث لا يمكن أن يزاد عليه ،وحينئذ تكون تلك صورة في الطبقة العليا من الحسن ،والأسفل هو أن يحصل هناك قدر من التناسب،بحيث لو انتقص عن ذلك لم تحصل تلك الصورة ،ثم بين الطرفين مراتب مختلفة)[٢]وفي السياق نفسه يقول جون كوين(يمكن أن نتصور ظاهرة الأسلوب في شكل خط مستقيم، يمثل أقصى طرفيه قطبين ؛ قطباً نثرياُ، تنعدم فيه كل مظاهر المجاوزة ، وقطباً شعرياً يتحقق فيه الحد الأقصى منها، وبين القطبين تتوزع الأنماط المختلفة المستخدمة في اللغة الشعرية، وبالقرب من القطب الشعري توجد القصيدة، وبالقرب من القطب الآخر توجد اللغة العلمية، والمجاوزة في هذه اللغة ليست منعدمة، ولكنها تتجه نحو الصفر)[٣]وفي هذا السياق يقول جون لوينز(السلوك اللغوي عادة سلوك هادف،وحتى الجملُ العلميةُ الخاليةُ من العاطفة ، والتي لا يوجد بها الحد الأدنى من المعاني المعبرة تهدف إلى كسب الأصدقاء، والتأثيرعلى الناس)[٤]و(يترتب على هذه النظرية أنه لا توجد عبارة خالية من الدلالة الوجدانية خلواً تاما ، وإذا تصورنا مثل هذه العبارة المحايدة في موقف محايد تماماً فيجب القول إن الدلالة الوجدانية هنا تساوي الصفر)[٥]

وإذا كان المعطى الواقعي للمنجز اللغوي النصي لا يسمح بالفصل الحاد بين النصوص وظيفة وتشكيلا فإن ذلك لا ينفي أن افتراض مستوى لغوي علمي نفعي في شكله ومضمونه يمثل ما يعرف بالكتابة في درجة الصفر افتراضٌ تمليه ضرورات منهجية، تتمثل بالحاجة إلى رصد معالم انحراف الخطاب اللغوي الفني عن مكونات المستوى النفعي العلمي للغة، وهو رصد يهدف إلى ربط معالم هذا الانحراف بما لها من رصيد جمالي فني، يتمثل بقدرات النص التأثرية الانفعالية و الإبلاغية التأثيرية [٦]، ولاشك أن الكشف عن هذه الأمور في النص يفضي إلى تعزيز علاقة الفهم والتأويل والتذوق بين النص ومتلقيه، ومن نافلة القول أن ذلك حجر الزاوية في النقدي اللغوي للنص .

---

[١] نهاية الإيجاز ٩٢

[٢] نهاية الإيجاز ٩٢ -٩٣

[٣] بناء لغة الشعر ٣٤ -٣٥، وانظر٣٣منه ، وانظر أيضا: علم لغة النص٦٧، ٢٥٠ -٢٥١وبلاغة الخطاب وعلم النص ٨٤، ٨٥، والتحليل اللغوي للنص ٣٠.

[٤] اللغة واللغويات١٥١

[٥] اللغة والإبداع ٤٤. وانظر: ١٠٢منه .

[٦] انظر: البلاغة والأسلوبية٢٠٨ ومقالات في الأسلوبية ٩٨

على أن ما يعنينا الآن هو أن البعد الذاتي للخطاب اللغوي تزداد الحاجة إليه كلما ازدادت عنايته بالوظيفة الجمالية الفنية، ذلك أن الوظيفة الأساسية للخطاب في هذه الحالة لم تعد الإخبار والتواصل ونقل المعلومة، بل المقدرة على التعبير عن التأثر والانفعالات الشخصية، والمقدرة على الإثارة والتأثير في المتلقي، فـ(دور اللغة في الأدب عامة يختلف عن دورها في غير الأدب ، ويتخصص هذا الدور في الشعر ، فتكون اللغة هي السبيل الوحيد لبناء القصيدة)[١] و(اللغة بناء مفروض على الأديب من الخارج، والأسلوب مجموعة من الإمكانيات تحققها اللغة ، ويستغل أكبر قدر منها الكاتب)[٢] أو الفنان اللغوي عامة، ذلك أنه يتعامل مع أعراف لغوية متعددة[٣] لها خاصية اللغة اليومية الآلية التي يحاول الفنان مقاومتها، والتصدي لها بأداة محددة هي اللغة الشعرية[٤]مما يجعل اللغة مظهر الخلق الأدبي، وبهذا المظهر تتجلى خصوصية المبدع[٥]، فما معالم هذه الخصوصية في اللغة الشعرية؟ وما آفاقها عند المعنيين؟ هذا ما سيكون مدار حديثنا في الفقرة التالية :

خصوصية اللغة الشعرية؛ الدواعي والآفاق :

استقر في العصر الحديث خاصة لدى جمهور المعنيين بالعلاقة بين اللغة والشاعر أن الصبغة اللغوية الشخصية شرط وجود شعرية النص الشعري ، فالتعبير الأدبي أو العمل الأدبي مستوى كلامي أو نمط لغوي له خصوصية، سوغت أن تضفى عليه سمة الأدبية أو الشعرية[٦] ، لذا نصَّ غيرُ واحد منهم على أن تحقيق هذه الشعرية مرتبط بما يقوم عليه الخطاب الشعري من الخصوصية التي تميزه عن النظام اللغوي المفترض للخطاب العلمي النفعي العادي(فالأدب تتحقق طبيعته من خلال اللغة واللون والصوت التي تستمد معالمها من اللغويات الأسلوبية)[٧] كما يقول الدكتور محمد عبد المطلب ،و(المجاوزة هي الشرط الضروري لكل شعر)[٨] كما يقول جون كوين، و(الانحراف عن المعيار المألوف .. الجوهر الأساسي للشعر)[٩] كما يقول دارس آخر ، لذا ليس من المستغرب أن يحدثنا الدكتور نعيم اليافي عن قصيدة(تقوم على تكسير قواعد اللغة المألوفة المتداولة، وأسسها المنطقية.. لتؤسس لغة أخرى خاصة بها ، تتصف بالتحويل والتناحر والانزياح)[١٠] ولذلك (لا تتصف الانحرافات بالمستويات الصوتية والنحوية وخاصة الدلالية بمنظور سلبي،

---

[١] الإبداع الموازي ٣٥

[٢] البلاغة والأسلوبية ٢٤٠

[٣] اللغة والإبداع الأدبي ٦٠

[٤] بلاغة الخطاب وعلم النص ١٧٥ وعلم لغة النص٦٣.

[٥] بلاغة الخطاب وعلم النص ٤٣

[٦] انظر: بناء لغة الشعر ٢٤ -٢٥، وأدبية النص ١٦٠

[٧] البلاغة والأسلوبية ١٨٤

[٨] بناء لغة الشعر٣١ وانظر: ٥٧، ٦٤، ٩١. وانظر: نظرية اللغة في النقد العربي ٤٨٧

[٩] الموسوعة اللغوية ٥٩٢/٢، وانظر: النص والخطاب والإجراء ٥٧٨.

[١٠] أوهاج الحداثة ١٠٦

بل تعمد إلى وصف الآليات التي تنتجها بطريقة إيحائية عن طريق إقامة نحو الشعر)[١]وهكذا استقر في الدرس اللغوي والنقدي الحديث أن أدبية فنون القول عامة مشروطة بالفرادة والخصوصية اللغوية [٢].

على أن الجدير بالذكر أن أنواع الشعر بمدارسه ومذاهبه المختلفة ليست على درجة واحدة من الحرص على التفرد اللغوي، أو التعمق في هذا التفرد، وذلك بحكم اختلاف هذه الأنواع بعضها عن بعض طبيعة ووظيفة [٣] فـ(مجالات استخدام اللغة الشعرية متنوعة بتنوع وظائفها، فنحن من هذه اللغة لسنا بإزاء نمط قولي واحد، بل نحن أمام عدد من الأساليب الوظيفية ، يختلف فيها الشعر الملحمي عن الشعر الغنائي، كما يختلف الشعر الغنائي عن الشعر الخطابي)[٤]

والملاحظ بجلاء اختلاف تصورات المعنيين بهذه القضية لمعالم وآفاق الخصوصية اللغوية المطلوبة في بنية الخطاب الشعري ، وهو اختلاف يصدر عن تباين في تصور الشعر مفهوما ووظيفة كما يصدر بلا شك عن تباين في الخلفيات الأيديولوجية والثقافية الفكرية العامة الناظمة والموجهة لصاحب هذا الرأي أو ذاك. وفيما يلي تفصيل القول في ذلك يتضح لدى المعنيين بخصوصية اللغة الشعرية وتحديد معالمها وآفاقها مذهبان أساسيان ، مذهب يرى أن هذه الخصوصية تتمثل بانتهاك نظام اللغة العادية النفعية، وخرقه وتدميره ، وذلك بإطلاق وتعميم قد يوحيان بما لا يعكسه المنجز الشعري عند التحقيق، أما المذهب الرئيس الثاني فيما نحن فيه فيرى خصوصية اللغة الشعرية ضرباً من الاستثمار الخاص لمعطيات اللغة النفعية العادية، وهو استثمار يتجلى بمظاهر أسلوبية تتمثل بالتركيز الملحوظ على توظيف بعض مكونات نظام اللغة العادية النفعية دون غيرها، ولا ينكر هذا المذهب على الشاعر أن يخالف أحياناً مكونات هذا النظام مخالفة تستدعيها طبيعة سياق العلاقات النصية العامة المنتجة لأدبية تجربته الشعرية .

ومن أبرز تجليات المذهب الأول الذي يرى أن خصوصية اللغة الشعرية تتمثل بانتهاك وتدمير وخرق قواعد اللغة العادية ما نجده عند الشكليين الروس الذين يرون أن اللغة الشعرية(تتصف بتشويه مقصود للغة العادية عن طريق العنف المنظم الذي يرتكبه ضدها الكاتب)[٥] وقد التقت وجهات نظر بعض المعنيين باللغة الشعرية في المشهد الثقافي العربي بنظرية الشكليين الروس في هذه القضية، لذا نجد في هذا المشهد من يتحدث

---

[١] أساليب الشعرية المعاصرة ٢٣

[٢] انظر: اللغة والإبداع ٦٠، وأدبية النص٢٢٦، والحداثة في حركة الشعر ٩٩ -١٠٠

[٣] وضح عمليا هذه الحقيقة جون كوين بإحصائه لمعالم من التجاوز اللغوي لدى عدة شعراء من مدارس مختلفة، هي الكلاسيكية والرومانسية والرمزية. انظر: بناء لغة الشعر ٣٠ -٣١، ٩٥، ١٥٥، ١٩٧، ٢٠٩، ٢١١ وانظر أيضا: أساليب الشعرية المعاصرة ٣٧ ونحو النص ٨٧، ١٢٩للنحاس.

[٤] تحليل النص الشعري ١٠

[٥] مفاهيم نقدية ٦٠ -٦١، و ٤٧١ وانظر: النقد الأدبي والعلوم الإنسانية ٩٣

عن قصيدة (تقوم على تكسير قواعد اللغة المألوفة ... وكأنها لغة أخرى خاصة)[١]وفي سياق متصل نجد من يقول (عدوانا اللدودان سيبويه والخليل)[٢] في إشارة إلى ضرورة أن يثور الشعر على المرجعية اللغوية المرموز لها بسيبويه، وعلى المرجعية العروضية المرموز لها بالخليل، ويمكن في ضوء دعوات كهذه أن نجد شاعراً يفخر بأن يخطئ في اللغة العربية [٣]، وأن نجد حداثة (تدور حول رفض القواعد النحوية ، وتأكيد نظام اللاتشاكل، وإهمال الارتباطات المفهومية والمنطقية بين المفردات، وتدمير بنية الجملة من داخلها، وإلغاء نظرية تأدية المعنى الواحد من خلال التركيب، والسعي وراء المستتر، ومعنى المعنى، أو الدلالة على مستوى النص الكلي بحيث يتحول النص المفتوح إلى سلسلة من الإمكانات والاحتمالات والتأويلات التي لا حدود لها)[٤] ولا يخفى ما للمنظومة الفكرية والأيديولوجية العامة من أُثر في تكوين رؤية أصحاب هذا الطرح في طبيعة اللغة الشعرية منظرين وشعراء، وهذا ما يؤنس به قول أحد الدارسين(تتمثل واحدة من الظواهر المميزة للشعراء المحدثين بالإهمال الذي يبدونه لقواعد النحو.. ويشير خرق القواعد النحوية لدى بعض هؤلاء الشعراء إما إلى انعدام المعرفة الكافية بالنحو، وإما إلى عدم المبالاة بسلطة القواعد المكتوبة، وفي الحالتين ثمة امتناع واضح عن التطابق مع النظام القائم عبر التراث ، بل أكثر من هذا أن اللامبالاة تتخذ لدى بعض الشعراء صيغة فعل إرادي أو عمدي، يبدو كما لو كان شكلاً جانبياً من هذا الديالكتيك الإبداعي القائم على الهدم ، وإعادة البناء الذي يطمح الشاعر الحديث إلى تحريكه في اللغة العربية، وفي حين يسمح اللامبالون أن ترد في أعمالهم بين الحين والآخر بعض التراكيب المغايرة لقواعد اللغة فإن الشعراء المجددين إنما يتعمدون خرق هذه القواعد آتين باستعمال جديد للنظام القاعدي)[٥]

وإذا كان من الطبيعي أن يصدر هذا الطرح في تصور علاقة الشاعر العربي بلغته عن منظومة فكرية أيديولوجية عامة فإن ما يمكن أن يتحفظ عليه المرء في هذا الطرح هو ما فيه من نكهة الاحتجاج على الوضع المجتمعي العام متخذا الموقف من العربية معبّرا عن هذا الاحتجاج، وكأن تغيير العربية مقدمة للارتقاء بالمجتمع والتقدم في بنائه، فالعربية في وضعها الحالي[٦] كما يتراءى من الطرح السابق غير قادرة على استيعاب التجربة الشعرية الحديثة، مما يحمل المبدع على أن يُعمل معولَ الهدم والتغيير في هذه اللغة، وهذا ما

---

[١] أوهاج الحداثة ١٠٨

[٢] أوهاج الحداثة ١٠٨

[٣] انظر : أوهاج الحداثة ١١٢، ١٢٢

[٤] أوهاج الحداثة ٢٢٧

[٥] حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر١٤٩ -١٥٠وانظر : بناء لغة الشعر ٦٤، والحداثة في حركة الشعر ٩٩ -١٠٠و جماليات الصوت اللغوي ٦٢

[٦] انظر لذلك كله "الحداثة في الشعر العربي المعاصر" للدكتور وليد قصاب، ولاسيما فصل"الحداثة واللغة"١٨٦ -٢١٨.

لم نسلم به لأسباب علمية ، مفادها أن في نظام اللغة العادية طاقات تعبيرية جمالية كامنة كفيلة بالتعبير عن مختلف التجارب الشعرية إذا كان الشاعر نفسه مؤهلاً تأهيلاً لغوياً يمكنه من استثمار هذه الطاقات .

على أنَّ الذي يستهجن من كسر الشاعر للتقاليد والقواعد اللغوية أن يكون منه ذلك عن السهو أو الغفلة، وعدم إتقانه لأدواته اللغوية، أما إذا كان خروج الشاعر عن أعراف اللغة قائما على تمكن من أدواته اللغوية ورغبة في توظيف هذا الخروج توظيفا فنيا فهذا ما يتفهمه المرء ويعمل على تحليله وتفسيره وربطه بوظيفته الجمالية، وكل ذلك يعني بالضرورة أن الخصوصية اللغوية المطلوبة في إنما تقوم على تمكن المبدع من لغته، لا على إهماله لها وعدم العناية بها، لذلك يرى مو كارو فسكي أن تفجير المبدع للغة مشروط بتمكنه منها وفي ذلك يقول(إن انتهاك قانون اللغة المعيارية الانتهاك المنظم هو الذي يجعل الاستخدام الشعري للغة ممكنة ، ومن دون هذا الإمكان لن يوجد الشعر، وكلما كان قانون اللغة المعيارية أكثر ثباتا في لغة ما كان انتهاكه أكثر تنوعا ، ومن ثم كثرت إمكانية الشعر في تلك اللغة ، ومن نا حية أخرى كلما قل الوعي بهذا القانون قلت إمكانيات الانتهاك، ومن ثم تقل إمكانيات الشعر)[١]

والجدير بالتذكير في هذا السياق أن ما يلاحظ عند المعنيين من عبارات كالانتهاك اللغوي، أو تدمير القواعد، وخرقها والانحراف عنها وغير ذلك من التعابير التي كثيرا ما نقف عليها في معرض وصف اللغة الشعرية لا تعني عند التحقيق ما توحي به من تخريب لغة الشعر للقواعد النحوية والصوتية والصرفية المعمول بها في اللغة العادية، بل تعني الإخلال بالمعهود في هذه اللغة من العلاقات الدلالية التركيبة القائمة بين المفردات،كعلاقة الإسناد والوصف والإضافة، إلى غير ذلك مما يتطلبه التخييل في الشعر من المجاز اللغوي الفني التصويري ، ومن تكثيف للغة بالتركيز على توازنها الإيقاعي التركيبي، وهذا ما يصدر عنه الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف في تصوره لخصوصية اللغة الشعرية، لذلك حرص على توضيحه والعمل به في تحليل النص الشعري[٢]،وهذا ما يُقْصَدُ بالخروج على قانون اللغة عند جان كوين في قوله(الحدث الشعري يبدأ بدءاً من اللحظة التي نسمي فيها البحر سطحاً، والسفن يمامات، فهنا خروج على قانون اللغة، مجاوزة لغوية يمكن تسميتها مع البلاغيين القدماء صورة، وهي وحدها التي تَمُدُّ الشعرية بموضوعها الحقيقي)[٣]لذلك نسب الدكتور محمد مفتاح كوهن إلى القول بأن (الشعر يقوم على المجاوزة ، وبخاصة الاستعارة، ومن ثمة فإنه يقوم على خرق العادة اللغوية)[٤] وغني عن البيان أن المجازات والاستعارات مهما بعدت فيها العلاقة بين المستعار، والمستعار له أو بين المنقول عنه والمنقول إليه في

---

[١] دراسات مختارة في نظرية الأدب ٤٦.

[٢] انظر مثلا : ظواهر نحوية في الشعر الحر، ولاسيما ص١٢ -٢٠، والجملة في الشعر العربي٦ -٩، ١٥.

[٣] بناء لغة الشعر ٥٧. وانظر : ١٣٢، ١٣٥ ، ١٣٦، ١٥٦ - ١٥٧.

[٤] تحليل الخطاب الشعري ١٣.

الاستعمالات المجازية لا خرق فيها للعادة اللغوية المتمثلة بالبناء الصوتي أو الصرفي أو النحوي للغة، بل تعني كما قلنا الإخلال بالعلاقات الدلالية التركيبية المعهودة بين المفردات في نظام اللغة غير الفنية، وهذا ما يؤنس به حديث فان دايك عما وصفه بالانحراف أو الخطأ النوعي أو الشذوذ في الاستعمال اللغوي ، يقول دايك (وفيما يجري به العمل في السيمنطيقا اللسانية يمكن أن ننعت به الجمل من نحو" كانت الطاولة ضاحكة" بأنها من الوجهة الدلالية منحرفة غير اعتيادية وشاذة بسبب أن ما يدعى بضروب التقييد المختار في تأليف ومزاوجة بعض المقولات الإعرابية قد انخرق ... إن هذه الجملة غير صحيحة نوعياً، ويمكن أن نقول عن جملة ما: إنها صحيحة نوعياً إذا كان جزء معناها أو مرجع عبارتها ينتمي إلى خاصية رتبة المحمول، مثلاً رتبة المحمول ضاحك يمكن أن تكون فئة من مفهومات جزئية في حيز دلالي مما يحدد مفهوم الإنسان، والمفهوم الجزئي كشيء ممكن - الطاولة في مثالنا - لا ينتمي إلى هذه الفئة، وعلى ذلك فالجملة غير صحيحة نوعياً)[١]وهكذا يتضح أن المقصود بالشذوذ أو الانحراف أو عدم الصحة النوعية عند فان دايك إنما هو الإخلال بالعلاقات الدلالية التركيبية بين المفردات، وذلك بإقامة علاقات دلالية تركيبة بين المفردات لا عهد بها للخطاب اللغوي العادي،وهذا هو المقصود بالجمل المنحرفة أو الجمل غير النحوية في الشعر عند دارسين آخرين[٢] كالدكتور محمد عبد المطلب[٣] الذي بين أن أسلوبية الانزياح (تقيم على أساس المعيار النحوي الذي هو على العموم اللغة المعيار .. نحوا ثانيا مكونا من صور الانزياح، ويمكن أن تكون هذه الصور من طبيعيتين، فهي خرق للمعيار النحوي من جهة، وتقييد أو تضييق لهذا المعيار... وقد مُثِّل للخرق بالرخص الشعرية مثل الاستعارة)[٤]وغني عن التأكيد أن الرخص الشعرية في العربية ليست خرقا لقواعده بالمعنى الحقيقي لكلمة خرق، بل هي رخص نحوية مباحة في النصوص ذات الطابع الفني، وفي مقدمتها الشعر. وشبيه بما نجده عند الدكتور عبد المطلب ما نجده عند دارس آخر[٥] ذكرَ ما توصف به اللغة الشعرية من انتهاك أو خرق أو تجاوز لسنن الكلام العادي، أو انزياح أو انحراف عنه، أو أنها عنف منظم ضده، ثم بين أن ذلك كله يتمثل بتكثيف للغة باستخدامها استخداما تصويريا أو رمزيا، وأنه تركيزٌ على التوازن الإيقاعي، ولاشك أن هذه المسالك اللغوية لا تعني هدما أو تخريبا للقواعد الصوتية والصرفية والنحوية للغة العادية .

---

[١] النص والسياق ٦٥ -٦٦ .

[٢] انظر : نظرية اللغة في النقد العربي ٤٩١ -٤٩٣،واللغة والخطاب الأدبي ٨٥ -٨٦،٨٨.

[٣] انظر:البلاغة الأسلوبية ٧٩ -٨٠ ، ٢٦٤ -٢٦٥

[٤] البلاغة والأسلوبية ٥٨

[٥] هو الدكتور قاسم المومني في كتابه " شعرية الشعر " ٦ -٧

وفي ضوء هذا البيان العملي لمفهوم الانحراف أو الخرق لنظام اللغة العادية في لغة الشعر يغدو من المستساغ أن يتحدث بعضهم عن انحرافا ت صحيحة قواعدياً في لغة الأدب عامة [١]، كما أنه من المستساغ قول الدكتور شكري عياد (القول بأن الانحراف يعني مخالفة القواعد قول غير صحيح.... فالانحراف عندنا إذن يكون في البناء النحوي للجملة، ولكنه لا يعني مخالفة القواعد، وإنما يعني العدول عن الأصل)[٢]

فمن الملاحظ في هذه النصوص التي بيَّـن أصحابها عملياً ما يراد بما يوصف به الشعر عادة من التدمي رأو الخرق أو الانتهاك لنظام اللغة العادية النفعية أن هذه الأوصاف لا تعني عند التحقيق أكثر من الإخلال بالعلاقات الدلالية التركيبية القائمة بين مفردات اللغة والتعويل على التكثيف والترميز في الاستعمال الشعري للغة، مما يوحي أن اللغة الشعرية لا تقوم على تخريب قواعد اللغة النفعية العادية أو تدميرها أو تكسيرها كما يرى بعض المعنيين الذين قصدهم رينيه ويليك بقوله(نشير إلى العديد من الكتاب الذين تحدثوا مؤخراً عن مجافاة النصوص الشعرية لقواعد اللغة، أو عن ميلها لاستخدام نحو مضاد مع أنني أتفق مع إدوارد ستان كيفج حين يقول : ليس هناك ما يدعو اللغة الشعرية لأن تنتهك أياً من قواعد اللغة لتبقى كما هي، أي لتظل نوعاً من التعبير اللغوي الذي يتصف بقدر كبير من التنظيم والترتيب)[٣] .

والراجح أن اللغة الشعرية تقوم على استثمار خاص لطاقات تعبيرية موجودة بالقوة في نظام اللغة النفعية العادية، وهذا ما يقول به الرأي الرئيس الثاني في تحديد معالم وآفاق خصوصية اللغة الشعرية. ومقولة هذا الرأي يمكن اختزال جوهرها بأن اللغة الشعرية نظام ضمن النظام، أو لغة داخل لغة[٤]، فـ(الشاعر يخضع للنظام اللغوي الخاص بالشعر داخل النظام اللغوي العام)[٥] أي أن اللغة الشعرية على ما لها من خصوصية تستجيب لطبيعة الشعر مفهوماً ووظيفة محكومةٌ في النهاية بنظام عام وشامل، هو نظام اللغة النفعية العلمية العادية، مما يعني أن خصوصية النظام الجزئي لا تعني بالضرورة تخريب قواعد النظام الكلي، وهذا يفسر قول بعضهم(الشكل البلاغي ابتعاد عن المألوف من الاستعمال، ومع ذلك فهو داخل في قلب الاستعمال، وهنا تكمن المفارقة)[٦] فإذا سلمنا(بأن اللغة الأدبية أكثر من مجرد غرابة لغوية أفلا يمكن ألا يتميز الأسلوب فقط بكثرة الانحرافات، بل بإنجازه للمعيار، أو بلجوئه الإيجابي له ؟ ثم أي نوع من الابتعاد عن المعيار يشكل انحرافاً؟ وماذا عن الانحرافات التي تبقى صحيحة قواعدياً في التركيب،

---

[١] انظر: الموسوعة اللغوية ٢/٥٩٤ وسنورد بعد قليل من الموسوعة ما فيه توضيح أكثر لما نحن بصدد الإشارة إليه هنا

[٢] اللغة والإبداع ٨٥ -٨٦.

[٣] مفاهيم نقدية ٤٣٤ ، وانظر: علم لغة النص٦٢

[٤] انظر: بناء لغة الشعر ١٥٦ ، و ظواهر نحوية في الشعر الحر ١٢

[٥] ظواهر نحوية في الشعر الحر ١١

[٦] علم لغة النص ٦٧

ولكنها تحتوي على عناصر لا تحتل ترتيبها العادي تماماً ؟ يمكن القول : إن العديد من التأثيرات الأسلوبية تعمل بهذه الطريقة ، وهكذا يبدو أنه من الممكن أن ينطوي الأسلوب على شمولية استخدام الكاتب للغة، ولا يمكن أن يقتصر على انحرافات منعزلة هنا وهناك)[١]وأوضح من هذا الكلام في الدلالة أن لغة الأدب ما هي إلا استثمار خاص لمعطى نظام اللغة النفعية قول بول فاليري (ليس الأدب إلا نوعا من الامتداد والتطبيق لبعض الخصائص اللغوية، ولا يمكن أن يكون شيئا آخر، فهو يستخدم مثلا الخصائص الصوتية والإمكانات الإيقاعية للكلام، مما يغفله القول العادي المألوف، ولكن الأدب يصنفها، وينظمها، ويبني عليها استعمالاته الفنية كما ينمي الآثار التي تترتب على توافق الكلمات وتعارضها ، ويخلق منها أنظمة متبادلة تحث الروح على إنتاج نوع من التمثل الحي الذي يختلف عن اللغة العادية ... اللغة نفسها ليست سوى قمة الإبداع الأدبي والفني لشعب من الشعوب، وأي عمل من هذا القبيل لا يعدو أن يكون استثمارا لإمكاناتها وتوفيقا لكلماتها وأنظمتها التي خلقت من قبل)[٢]وفي هذا السياق يقول الدكتور صلاح رزق(قضيتنا الأساسية هي العمل الفني، أو الإنتاج الأدبي عامة، والشعر منه بصفة خاصة، ومادة تشكيل الإنتاج الأدبي اللغة، غير أنها لغة خاصة. تصدر عن كاتب معين داخل مقومات عامة للنظام اللغوي. ومن هنا ساغ القول عنها إنها لغة داخل لغة، ومهمتها تجاوز الإشارة إلى التأثير . والأصل في خصوصية الخاص الاختيار المقصود من داخل الإطار العام)[٣]و(الأمر الذي لا يُنازَعُ الإنتاجُ الأدبيُ فيه هو جمالية بنيته الداخلية باعتباره لغة خاصة توظف إمكانات اللغة النظام، وتتسع لكل مهارات المبدعين على تفاوتهم وكثرتهم)[٤]ولأن الأمر كذلك لوحظ أن(لغة الأدب هي التي تحدد الإمكانات التعبيرية الجمالية التي توجد بشكل اعتباطي في لغة الخطاب)[٥]وأن الأسلوب في أحد تجلياته وتعريفاته(استغلال للإمكانات النحوية)[٦]وقد تمثل العديد من المعنيين[٧]هذا المذهب المتمثل بأن خصوصية اللغة الأدبية تتمثل باستثمار المبدع للطاقات التعبيرية الكامنة في طبيعة اللغة العادية التي لا تستثمر هذه الطاقات عادة لغير الأغراض الجمالية الفنية، بل أقر بعضهم للشاعر صراحة بمخالفته لقواعد اللغة غير الفنية مخالفة تستدعيها طبيعة التجربة ، وتقبل التسويغ الفني الجمالي في إطار العلاقات النصية العامة التي تربط فيما بين مختلف العناصر المكونة للنص والمنتجة

---

(١) الموسوعة اللغوية ٢/٥٩٤ الجدير بالذكر أنني أعدت النظر في أسلوب هذا النص إعادة لا تخل بمعناه .

(٢) النظرية البنائية في النقد الأدبي ٢٣١ .

(٣) أدبية النص ٢١١ -٢١٢

(٤) أدبية النص ٢٢٦.

(٥) البلاغة والأسلوبية ١٨٤

(٦) البلاغة والأسلوبية ٢٠٩

(٧) انظر لذلك: الإبداع الموازي١١ -١٢، ٢٢، ٢٣ -٢٤، والأسلوب، دراسة لغوية إحصائية ٣٧ -٣٩واللغة بين البلاغة والأسلوبية٢٥٠ -٢٥١وتحليل النص الشعري٢٥٠ -٢٥٢.

لأدبيته ولرؤيته الفنية فـ(الشاعر يستخدم الكلمات عن قصد، وليس استخدامه لها عشوائيا، وقد يكون هذا القصد غير واع، ولكن الرؤية الفنية توجِّـه استعماله للغة، سواء من حيث المفردات أم من حيث التراكيب، ولذلك عندما ينحرف بها عن استعمالها المألوف لابد أن نحمل ذلك على محمل الجد ، ونحاول تفسيرها التفسير الذي يتلاءم وسياق النص، وبطبيعة الحال لا بد أن يكون هذا الاستخدام متوافقا مع الوزن ، وهذا التوافق الوزني لا يصح أن يكون مدعاة للقول بأنه اضطر إلى ذلك ، وكفى)[١]ويؤكد الدكتور حماسة هذا النهج في التعامل الشعري مع اللغة فيقول(الإبداع النحوي يربط بين النظام الثابت والأداء المتغير، والقصيدة بهذا تعد تجلياً متغيراً لهذه البنية الثابتة وحركة الشعر تفاعل خلاق ، وإبداع مستمر فوق سطح هذه البنية ،والتعامل مع المتجدد . لا بد أن يبدأ من الثابت الذي يعد معياراً له، وعندما تتوافق القصيدة مع هذا المعيار تحتاج إلى تفسير لأنها في هذه الحالة تختار طرقا خاصة بها.. وعندما تخالف هذا المعيار ، وتخرج عن مألوف استعماله يكون هذا أيضاً في حاجة إلى تفسير مرتبط بالسياق... وهذه الصيغ غير المعيارية تعد معيارية في سياق القصيدة)[٢]وفي هذا السياق يقول الدكتور شكري عياد (الأرجح أن اللغة الفنية لن تخالف القواعد الأصلية على كل حال ، وإلا كانت غير مقبولة إطلاقاً... وربما اضطر الشاعر،أو خانه الطبع .. فمخالفة القواعد في اللغة الفنية لا يمكن أن تجري بدون ضابط)[٣]

وكلام الدكتور عياد، ومن قبله كلام الدكتور حماسة عن الانحراف في لغة العمل الأدبي بغض النظر عن مفهوم هذا الانحراف، يفضيان بنا إلى مسألتين اثنتين ؛ أولاهما أن لغة الشعر ليست انحرافا كلياً عن نظام اللغة الفنية، وثانيتهما أن الانحراف في العمل الأدبي ليس من الضروري أن يكون دائماً لغرض فني، أو أن يكون موفقا في تحقيق هذا الغرض، بل يمكن أن يكون معلماً من معالم إخفاق المنشئ ، لذا كان من الضرورات المنهجية التمييز بين ما يتضمنه النص من انحراف متفرد دال في استعمال اللغة، وبين الشطط الذي لا متعة فيه [٤]،إذ(ليس كل انحراف يؤدي إلى صورة بلاغية، ولكن أحداً لم يقدم لنا معياراً نميز به الانحرافات التصويرية ، وغير التصويرية)[٥]والجدير بالذكر أن ما يشترط للمشروعية الفنية للانحراف من ضرورة انتظامه في علاقته بالسياق [٦]،اشتراط يقارب المسألة، ولا يحلها، ذلك أن اشتراط مناسبة الانحراف للسياق النصي ليس كافيا لتحديد مشروعيته الفنية، لأن المناسبة نفسها ذات طبيعة نسبية ليس من المتيسر أن

---

[١] ظواهر نحوية في الشعر الحر ٨٠. وانظر: اللغة وبناء الشعر ٢٤ -٢٥.

[٢] الإبداع الموازي ١١ -١٢وانظر: منه ٢٥وانظر: ظواهر نحوية في الشعر الحر ٢٠

[٣] اللغة والإبداع ٨٣.

[٤] الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية ٥١

[٥] بلاغة الخطاب وعلم النص ١٩٩

[٦] انظر: الأسلوب ،دراسة لغوية إحصائية ٥١ .

يتفق عليها أطراف العملية الإبداعية منشئين ومتلقين، مما يعني تعذر وضع ضوابط كفيلة بأن تضبط تماماً معالم الانحراف في اللغة الإبداعية ، فسلطان التجريب في التعامل مع النصوص الإبداعية إنشاء واستقبالاً تقره طبيعة الأشياء ويتفهمه المعنيون بالعملية الإبداعية عامة. لذلك ينص بعضهم على عدم قابلية اللغة الأدبية للنمذجة [١] لأن النص علامة سياق ، والسياق أمر استنباطي لا مسموع منقول[٢]

على أن ما يحسن أن نختم به هذه الفقرة من البحث هو ما عرض له غير واحد من المعنيين من أن العمل الشعري ليس كله انحرافا عن نظام اللغة العادية ، وهو ما مررنا به غير مرة عرضا فيما تقدم، وفي ذلك يقول الدكتور حماسة(ليس كل تركيب في الشعر يجب أن يكون مجازاً، بل إن بعض التراكيب غير المجازية تكون في الشعر أحياناً أكثر شاعرية ، وأخصب عطاء، وذلك لمجاورتها ما تتفاعل معه أخذاً وعطاء)[٣]ويقول الدكتور محمد عبد المطلب(ليس كل نمط تعبيري يعتمد بالضرورة على خاصية الخرق المحدد ، بل إنه قد يبتعد تماماً عن الخرق والانتهاك إلى الأداء المألوف الذي تتوفر فيه المنبهات التعبيرية التي تتيح إبراز النية الجمالية في الصياغة) [٤]ويشير الشاعر عبد المعطي حجازي(إلى مستويين في لغة الإبداع الشعري: المستوى العام المشترك، والمستوى الخاص المجازي)[٥]أما جان كوين فيرى أن(الشعر ليس كله دوراناً، ولو كان كذلك لم يكن من الممكن أن يحمل معنى، ولأن له معنى فهو يظل امتداديا، والرسالة الشعرية هي في وقت واحد شعر ونثر ، فجزء من عناصرها المكونة يؤكد الدوران بينما يؤكد جزء آخر الامتداد الطبيعي للمقال)[٦]ويرى بول فالري أن(للتعبير اللغوي مظهرين ؛ نقل حقيقة وتوليد عاطفة، والشعر هو حل وسط ، أو نسبة معينة بين هاتين الوظيفتين)[٧]ولعل مقولة جمع الخطاب الشعري هذه بين مكونات لغة الإشارة ومكونات لغة العبارة، أو جمعه بين وظيفتي الإبلاغ والإيحاء تسوِّغ دعوة بعضهم إلى ضرورة(تمييز العناصر اللغوية المحايدة من آليات التعبير التقني للأساليب الشعرية)[٨]وينسب الدكتور يوسف نور عوض إلى الشكليين الروس تحديد

---

[١] انظر: البلاغة والأسلوبية ٣٦٢

[٢] النقد العربي ؛ نحو نظرية ثانية ١٧

[٣] الإبداع الموازي ٣٩.

[٤] البلاغة والأسلوبية ٢٦٤

[٥] الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربية المعاصرة ٢٢ بحث للدكتور عبد الله أحمد مهنا .مجلة عالم الفكر ع٣ -١٩٨٨

[٦] بناء لغة الشعر ١٢٣.

[٧] بناء لغة الشعر ٢٣١.

[٨] أساليب الشعرية المعاصرة ١١والجدير بالذكر أن الإقرار بوجود عناصر محايدة في العمل الأدبي لا يعني أن هذه العناصر عبء عليه، أو أنها لا وظيفة لها فيه، بل يعني أنها أشبه بالبنية اللغوية التحتية التي يمكن أن توجد في مختلف الأعمال الأدبية بغض النظر عن الخصوصية الوظيفية لهذه الأعمال ،ودور العناصر اللغوية المحايدة في العمل الأدبي شبيه بدور الحرارة في التفاعلات الكيمائية ، فالحرارة وسيط منشط لأي تفاعل كيمائي بغض النظر عن الغرض من هذا التفاعل.انظر : أصول تحليل الخطاب ٣١/١ -٣٢

الوسائل التي يمكن أن يتحقق فيها مفهوم الأدبية، وأنهم (وصلوا في ذلك إلى أن الأدبية ليست صفة ملازمة للنص بأسره، وإنما صفة لبعض المظاهر في النص الأدبي)[١]

وكل ما تقدم يوضح بجلاء أن غير قليل من المعنيين باللغة الشعرية يرون أن الانحراف أو الانزياح في هذه اللغة ليس من الضروري أن يكون صفة ملازمة لكل عناصر التشكيل اللغوي للنص الشعري ،بل يذهب الناقد البريطاني س.هـ . بورتون في كتابه " نقد الشعر" إلى ما هو أبعد من ذلك حين يقرر مع إيمانه بأهمية المجاز والتصوير في الشعر أن ذلك ليس دائما شرط وجود بالنسبة لهذا الجنس الأدبي، يقول بورتون (إن التصوير في الشعر استثارة للحواس بواسطة الكلمات ... ومن ثم يستخدم الشعر المجاز بكثرة، ولكن هذا لا يعني القول بأن الشعر الجيد ينبغي أن يكون متضمنا المجاز ، ونضرب لذلك مثلا قصيدة من شعر جون دون ،وهي خلو من المجاز تقريبا... ومع ذلك فإنها قصيدة قوية في عاطفتها ، وفي فكرها ، تعطي تأثيرها خلال تعبيرات منطقية مباشرة ... ثم لا نجد هنا شيئا من الصور الحسية المباشرة التي كثيرا ما نجدها في قصائد أخرى)[٢]وكل ما تقدم في هذه الفقرة يشي بمبالغةٍ وتعميمٍ غير محمودين في قول الدكتور إبراهيم أنيس (لا يكون الأدب أدباً إلا بخروج الكلمات عن دلالاتها اللغوية ، وشحنها بفيض من الصور والأخيلة)[٣]

ومن المناسب أن ننظر إلى مزاوجة الشعر بين لغة العبارة ولغة الإشارة في ضوء مقولة ياكبسون التي عرضناها من قبل، والتي تقول بتعدد وظائف الخطاب مع هيمنة إحدى هذه الوظائف على سائرها هيمنة تفضي إلى أن تفرض هذه الوظيفة على الخطاب الشكل المناسب للتعبير عنها مع الإقرار بسائر الوظائف التي يُعَبَّرُ عن كل منها بما يناسبه من الأشكال اللغوية ، ذلك أن الشعر بحسب مدارسه وأنواعه يقوم على نسب متفاوتة من البوح والإيحاء، ومن الإخبار والإفهام (فالوظيفة الشعرية لا تلغي الوظائف الأخرى، بل تكتفي بالهيمنة عليها، فالواقع أن النص الشعري يحتوي على عناصر شعرية، وعناصر إخبارية)[٤]

وبعد هذا العرض لطبيعة العلاقة بين اللغة والشاعر نطمح أن تكون هذه الطبيعة أكثر وضوحاً وأنضج تسويغا تنظيرياً، وأقرب إلى التأطير والاستشراف في حديثنا التالي عن نحو الجملة ونحو النص اللذين تجمع بينهما على تمايز أحدهما عن صاحبه علاقة تكامل تساعد في أن تكون النظرة إلى الظاهرة اللغوية عامة أكثر واقعية وحيوية، وتوحي في الوقت نفسه بأن نصية النص، وأدبيته في ضوء النظرية النصية تقومان على استثمار المنشئ لمعطيات من نحو الجملة في علاقات نصية عامة تقوم على ترابطِ وتكاملِ العناصر النصية المكونة للنص، والمسؤولة عن نصيته والمنجزة لأدبيته، وذلك بغض النظر عن طبيعة هذه العناصر اللغوية وغير اللغوية .

---

[١] نظرية النقد الأدبي الحديث ١٧.

[٢] اللغة الفنية ٧٢. وانظر: ١٠٧.

[٣] دلالة الألفاظ ١٧٤

[٤] البلاغة والأسلوبية ١٠٣

نحو الجملة ؛ دواعي النشأة والمفهوم والاهتمامات .

قد يكون من المسلم به أن للغرض الرئيس من دراسة أي موضوع أثرا بالغا في تحديد معالم البحث فيه وآفاقه وأصوله واهتماماته، لذا يرى الدكتور مصطفى ناصف أن(اختلاف الوظائف مصدر كل اختلاف في وصف اللغة)[١]ويضيف الدكتور ناصف(كل دراسة تطوي في داخلها العناية ببعض الأهداف دون بعض ... وقد كانت أبحاث اللغة تتمايز، وتختلف بحسب هذه الأهداف، وإن كان هذا الاختلاف لم يأخذ أحياناً حظه من التفصيل النظري)[٢]يضاف إلى ذلك ما للسياقات المعرفية والثقافية من أثرفي تحديد معالم وآفاق العلوم التي تنشأ في ظل هذه السياقات، وإذا ما نظرنا إلى نحو الجملة مفهوما وأحكاما واهتمامات في ضوء ما تقدم كله تسنى لنا أن نتفهم ما قام عليه من قواعد وأحكام وآفاق واهتمامات. فكما يقول بوغراند - (اعتمدت دراسات التراكيب اللغوية جميعها منذ نشأتها في العصور السحيقة على مفهوم الجملة SENTENCE دون غيره، ومن المقلق أن هذا التركيب الأساسي قد أحاط به الغموض وتباين صور التعريف حتى في وقتنا الحاضر)[٣]ويُفسِّر بعضهم سيطرة(نحو الجملة على القواعد في جميع لغات العالم المعروفة في القديم والحديث بتأثيرمن التقاليد الراسخة التي أرساها النحو اليوناني حين ارتبطت الجملة في النحو بالحكم المنطقي)[٤]ويبدو أن للقضية أيضا سببا أعم وأشمل مما جاء في هذا التسويغ لهيمنة الجملة دون النص منذ النشأة على الدرس اللغوي في العالم أجمع، وهو أن الغرض التعليمي للدرس اللغوي عامة أولوية الأولويات بالنسبة لهذا الدرس، وفي ذلك يقول دانييل مانيس (أما النحو التقليدي فقد كان منذ أقدم العصور مكرسا لتصنيف اللغة في أقسام وأصناف تشريحية ، ولم يكن همه اللغة ذاتها ، بل تحديد القواعد النموذجية الملاحظة في لغة ما ، وهكذا نشاهد في كتب النحو المدرسي الصيغ الشاذة والطرائق الاستثنائية الخاصة إلى جانب القواعد المطردة)[٥]

أما الدواعي التعليمية للنشوء الدرس النحوي عند العرب فأشهر من يشار إليها بالنسبة للمعنيين. وإذا كان الأمر كذلك كان من الطبيعي أن تحتل الجملة دون النص موقع الصدارة لدى انطلاقة العلوم اللغوية، لأن طبيعة التفكير الأولي قد تنطلق من البسيط إلى المركب، ومن المركب إلى الأكثر تركيبا، ولأن الجملة فيما نحن فيه أكثر من النص قابلية للخضوع للحد الأدنى من الضبط والطرد المطلوبين في الدرس التعليمي للغة ، ولأن وظيفة النحو الأساسية أن يعلم الناس صياغة الجملة التي تمثل حجر الزاوية في النص(وَضَعَتْ الأنحاء التقليدية الغاية المعيارية نصب عينها ، فدارت أكثر تعريفاتها ومنها النحو العربي على أن النحو به

---

[١] اللغة بين البلاغة والأسلوبية ٢١٩

[٢] اللغة بين البلاغة والأسلوبية ٩٩ -١٠٠

[٣] النص والخطاب والإجراء ٨٨.

[٤] العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ٤٠٧ وانظر: ٤٠٨، ٤٢٠ -٤٢١ منه .

[٥] علم اللغة ٢٠٩دانييل مانيس .

يُعْرَفَ الصواب والخطأ،وتتحقق به السلامة للكلام كتابة وقراءة)[١]ولهذا نص ابن جني على أنه بالنحو(يلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها، وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رُدَّ به إليها)[٢]

والجدير بالذكر أنَّ النحو العربي على كونه نحو جملة بامتياز راعى منذ وقت مبكر خصوصية اللغة الشعرية ، وذلك لأسباب معيارية تتعلق بالمقام الأول بطرد القواعد ، لذا أجاز النحويون في الشعر ما لم يجيزوه في النثر، وهو ما عرف لديهم بالضرائر الشعرية التي وُلِدَتْ تفكيرا وتنظيرا وتقنينا في أحضان دراسة نحو الجملة لأغراض تتعلق كما قلنا بحصانة القاعدة وطردها، ولا شك أن حديث نحاة العربية عن الضرائر الشعرية معلم من معالم إدراكهم المبكر لوجود مستويين في اللغة على الأقل، هما المستوى النمطي والمستوى الفني[٣]، ولكن ذلك لم يحل دون التفات بعض النحاة إلى الدواعي الفنية النفسية للجوء الشاعر إلى ما عرف لديهم بالضرائر الشعرية ، وهذا ما تجلت بعض معالمه لدى ابن جني في تشبيهه للشاعر المرتكب للضرائر بالفارس الذي يُجري حصانه في ساح الوغى دون احتراس مع قدرته على ذلك ، ولكن احتراسه هذا لا يستجيب لطبيعة حاله النفسية في هذا الموقف ، وفي ذلك يقول ابن جني(فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرائر على قبحها ، وانخراق الأصول بها فاعلم أن ذلك على ما جشمه ، وإن دلَّ من وجه على جوره وتعسُّفه فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمطه ، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته ، ولا قصوره عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته)[٤]

على أن ما تحسن الإشارة إليه أن مصطلح النحو لا يقتصر في الدراسات اللغوية قديما وحديثا على بعد واحد، لا من حيث المفهوم، ولا من حيث الاهتمامات، أما من حيث المفهوم ، فلهذا المصطلح مفهومان ؛عام واسع، وخاص ضيق، أما المفهوم الخاص للنحو فيتمثل بالعلم الذي يدرس مستوى محددا أو نظاما واحدا من أنظمة اللغة، وهو مستواها التركيبي أو نظامها التركيبي وهو ما يعرف بالإنكليزية بـ(Syntax) ذلك العلم الذي يعنى ببيان الأحكام والقواعد الناظمة لترتيب الكلمات داخل الجملة أو العبارة أو التركيب، أما المفهوم العام للنحو فالمراد به[٥] دراسة صوتيات اللغة ومعجمها وصرفها، وجملها

---

(١) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص٤١٢ وانظر: النص والخطاب والإجراء ٩٥.

(٢) الخصائص ١/ ٣٤ .

(٣) أقدم معالم التفكير في الضرورة الشعرية نشأت وتطورت في أحضان الدرس النحوي ، وذلك بدافع طرد القاعدة والتماس العذر لما خرج عنها في الشعر بالاستجابة للوازم الشعر المتمثلة في المقام الأول بوحدتي الوزن والقافية . انظر: اللغة الشعرية عند النحاة ولاسيما ص ٨٩ -١٣٢، ونظرية اللغة في النقد العربي ٤٣ -٦٥، ٢٩٥.

(٤) الخصائص ٢/٢٩٣وللنصوص لأئمة آخرين شبيهة في الغرض بنص ابن جني انظر: اللغة الشعرية عند النحاة١٣٢ -١٣٣

(٥) اللغة واللغويات ١٣١والإبداع الموازي ١٠، ٣٠والأسلوب، دراسة لغوية إحصائية ٣٨وأدبية النص ٩٥

وتراكيبها ودلالتها العامة، والجدير بالذكر أن النحو بالمفهوم الخاص الضيق المقتصر على دراسة ترتيب الكلمات داخل الجمل أو التراكيب هو المتبادر إلى الذهن في كتب النحو العربية، ولاسيما التعليمي منها، وفي أوساطنا التعليمية المعنية بدراسة اللغة العربية وتدريسها، على أن ذلك لا ينفي أن المفهوم العام الواسع للنحو لم يكن غائبا عن بعض تجليات درس السلف للغة العربية، ومن هذه التجليات ما جاء لدى ابن جني في معرض حديثه عن النحو حيث بين أن المراد بهذا النحو انتحاء سمت كلام العرب[١]، ولاشك أن انتحاء سمت كلام العرب لا يكون إلا بمعرفة أصول لغتهم الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية والدلالية العامة، يضاف إلى ذلك أن كتاب سيبويه كما هو معروف كتاب نحو بمعنييه العام والخاص ، ذلك أنه عني بالعربية صوتيا، وصرفيا وتركيبيا جمليا ودلاليا

أما تعدد أبعاد مصطلح النحو من حيث وظيفته ومهمته، فيتمثل – وهذا واضح عند أئمة العربية - بعدم اقتصاره على الوظيفة المعيارية التعليمية المعنية ببيان صحيح الكلام من فاسده ، بل تعدى الأمر ذلك لأسباب بحثية ودينية إلى الحديث عن خصائص الأبنية والتراكيب اللغوية العربية ، فقد كان الاعتقاد الراسخ بأن نظم القرآن سرٌّ مِنْ أسرار إعجازه، وبأن براعته في استعماله للغة العربية براعة لا نظير لها حافزا على تفتق العقول عن دراسات عميقة في نظم القرآن وتراكيبه، وحافزا على التنقيب والاطمئنان والبحث المستمر عن أسرار الصيغ والتراكيب اللغوية في العربية عامة[٢] وقد كان ذلك ديدن غير قليل من أئمة العربية نحاة ونقادا ومفسرين[٣] ، ولهذا يسعى بعض الدارسين[٤] إلى بيان أن المنوال النظري الذي أسسه النحاة العرب لم يكن قائما على التقسيم إلى نحو وبلاغة، وأن هذا التقسيم طارئ، وليس أصيلا في هذا المنوال

ومن نافلة القول أن هذا الضرب من الدراسة النحوية البلاغية اكتمل ونضج عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" الذي يدور على فكرة، مفادها – كما بات معروفا - أن النظم سر الإعجاز والبلاغة، وأن هذا النظم إنْ هو إلا اتباع معاني النحو ،تلك المقولة التي توجزها، وتوضحها عند الجرجاني فكرة الوجوه والفروق التي لخصها بقوله(وإذا قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو على الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية ، تقف عندها، ونهاية، لا تجد لها ازديادا بعدها)[٥] والجدير بالذكر أن الدارسين اختلفت تسمياتهم لهذا الدرس البلاغي

---

[١] الخصائص ١/ ٣٤

[٢] انظر: اللغة بين البلاغة والأسلوبية ٢١٧والإبداع الموازي ٣٠واللغة وبناء الشعر١٧ -٢٢وأدبية النص ٣٧ .

[٣] راجع لهذه الجهود فيما نحن فيه الموجز في تاريخ البلاغة ٣٨ -٦٤ ،واللغة الفنية، مقدمة المترجم ١٤ -١٥، وقد دار كتابا "أثر النحاة في البحث البلاغي"و"أدبية النص"حول هذه الجهود.

[٤] هذا ما كان من محمد الشاوش في " أصول تحليل الخطاب " انظر١/ ١٨، ٩٧.

[٥] دلائل الإعجاز ٦٩ وانظر: أدبية النص ٣٩ ، ٤١

النحوي، ومن أشهرها كما هو معروف علم المعاني، ومنها نحو المعاني، والنحو الجمالي[١]، والنحو المقامي[٢]، والنحو العالي[٣]، والنحو التفسيري[٤]، والنحو البلاغي أو البلاغة النحوية[٥]، ولا شك أن هذه التسميات على اختلافها تؤكد حقيقة، مفادها أن أئمة العربية لم يقتصروا في دراستها على الغرض التعليمي المعياري ، بل تعدو ذلك إلى دراسة جمالية التراكيب اللغوية وأدبيتها ، وهي دراسة يمكن أن يكون لها دور بالغ الأثر في دراسة النصوص الأدبية عامة، والشعرية منها خاصة، ولكن الذي حال دون أن يأخذ ذلك مداه الحقيقي كما يرى غير واحد من المعنيين بالبلاغة العربية أنها لأسباب تتعلق بنشأتها بلاغةٌ معياريةٌ في المقام الأول[٦]، وأنها قصرت اهتمامها التطبيقي في الأعم الأغلب على الجملة أو العبارة أو الشاهد دون النص الكامل المتكامل[٧] ، وأنها عنيت أيضا في الأعم الأغلب بحالة المتلقي في ملابسات علاقاته بالرسالة اللغوية أكثر من العناية بالمنشئ [٨] في هذه الملابسة، فهذه الأمور مجتمعة حالت دون الإفادة من المنجز

---

[١] انظر: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٣٦٢.

[٢] انظر: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ٤١٨، ٤٢٧، ونحو النص ١٦ للنحاس

[٣] انظر: نحو النص ١٦ للنحاس

[٤] انظر: الإبداع الموازي ٢٩.

[٥] انظر: اللغة بين البلاغة والأسلوبية ٩٥

[٦] انظر: اللغة والإبداع ١٩، ٢٣ والنقد العربي، نحو قراءة ثانية ٢١٩ -٢٢٠حيث يقول الدكتور مصطفى ناصف في تفسيره لاصطباغ البلاغة العربية بالمعيارية: البلاغة تقترن في بعض الأذهان بفكرة القاعدة وسلطانها٠٠كانت البلاغة مشغولة بالمستوى القياسي للجماعة أكثر من اشتغالها بالمستوى السطحي، البلاغة العربية نظام نشأ لحماية اللغة .

[٧] انظر: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص٤٠٩ ،٤١٨و اللغة والإبداع ١٩، والبلاغة والأسلوبية ٣٣٧ ،واللغة الفنية ، مقدمة المترجم ١٨، ٢٣والإبداع الموازي ٣٠ -٣١، واللغة وبناء الشعر ٢٢ ،١٠٢حيث يفسر الدكتور حماسة اقتصار البلاغة العربية على الجملة أو الشاهد دون النص بارتباط هذه البلاغة ولاسيما عند عبد القاهر الجرجاني بالحديث عن الإعجاز القرآني، مفاد ذلك عنده أنه لما كانت الجملة الواحدة في القرآن الكريم معجزة بنظمها وتركيبها فإن تدليل عبد القاهر على نظريته اقتصر على الأبيات المفردة والجمل المستقلة المعزولة عن سياقها، وإن كان في أحيان قليلة قد يتجاوز البيت الواحد إلى عدد من الأبيات، ولكنه لم يتناول نصاً مكتملاً.

[٨] أشار إلى ذلك الدكتور تمام حسان في تقديمه لـ"النص والخطاب والإجراء" ٥ والدكتور مصطفي ناصف في " اللغة بين البلاغة والأسلوبية " ١٠٣، ١٠٩ ، ١٨٩ -١٩٠، ١٩٣ -١٩٤والنقد العربي ؛ نحو نظرية ثانية ٢٣٣ والدكتور محمد عبد المطلب في "البلاغة والأسلوبية" ١٢٦ -١٢٧، ٢٤٢ وأمين الخولي في " فن القول" ١٩٧ -٢٠٦. والجدير بالذكر أن الدكتور عبد المطلب والأستاذ الخولي يفسران هنا غلبة عناية البلاغة العربية بالمتلقي دون المنشئ بسبب ديني، مفاده أن البلاغة العربية التي تقوم على مراعاة مقتضى الحال منطلقها ومآلها النص القرآني، ومن المتعذر عليهم دينا وعقلا التحدث عن مقتضى حال الذات الإلهية المنشئة لهذا النص . وهذا التفسير فيه نظر ؛ ذلك أن النص القرآني كثيرا ما يتمثل بحوارات تقص أخبار وأحوال المتحاورين من غير الذات الإلهية، وهو ما أشار إليه الخولي نفسه في" فن القول" ٢٠٦. والجدير بالذكر أن الدكتور عبد المطلب يذكر في :" البلاغة والأسلوبية " ٣٢٤، ٣٢٧نماذج من شواهد البلاغيين، يتضح في تحليلها ملامسة حال المنشئ، والجدير بالذكر كما سيأتي أن الدرس النصي الحديث لم يكن أعلامه على درجة واحدة من الاهتمام بكل من المنشئ والمتلقي ، وذلك نظرا لاختلافهم في أهمية كل منهما في عملية الخطاب والتواصل ولتأويل .

البلاغي العربي عامة إفادة وصفية، تعنى بمختلف أطراف الحدث اللغوي مرسلا ومتلقيا ورسالة ،وتراعي خصوصيات النص الإبداعي الأدبي، والنظر إلى مكوناته في ضوء علاقاتها النصية البنيوية التجريبية الخاصة والمتكاملة ، وهذا ما يدعو إليه بعض البلاغيين المحدثين[١]

أما الألسنية الحديثة في مطلع القرن العشرين فلم يشغل الهدف المعياري التعليمي حيزاً ملحوظاً من اهتماماتها[٢] ،لأن هدفها الحقيقي هو أن تدرس اللغة دراسة علمية بنفسها ولنفسها[٣] فالنظرية اللسانية تهتم بأنساق اللغة الطبيعية ،أي تراكيبها المتحققة، أو الممكنة التحقق ، وبتطورها التاريخي، وبمختلف أنشطتها الثقافية ،ووظيفتها المجتمعية ،وأسسها المعرفية)[٤]وكل ذلك يعني أن تدرس اللسانيات الظاهرة اللغوية ممثلة بنصوص واقعية حية، تمثل ما أمكن هذه الظاهرة تمثيلاً حقيقيا، وذلك كله مخالف لما كان من الدرس اللساني في أول أمره ، ذلك أن الرغبة في إضفاء المزيد من العلمية والموضوعية على دراسة اللسانيين للظاهرة اللغوية جعلت متقدميهم كبلومفيلد وتشومسكي يعرضون[٥]عن العناية بالمعنى مع أنه بيت القصيد في الظاهرة اللغوية[٦]، و يقتصرون في ذلك على الجمل المجتزأة حينا والمصطنعة حينا آخر والأكثر قابلية من النص للتجريد و للخضوع لما يبتغيه القانون العلمي من الطرد والإطلاق[٧]، يقول فان دايك (جرت العادة في معظم النظريات اللسانية أن تعتبر الجملة كما لو كانت الوحدة الكبرى من نحو التركيب الصرفي، والتركيب النحوي، ومن نوع مراتب الدلالة ،والمستويات السيمانطيقية على حد واحد)[٨] وكلام فانديك هذا يوجز ما لفت الدارسين من اقتصار اللسانيين المحدثين للوهلة الأولى في دراسة الظاهرة اللغوية على أنماط

---

(١) كالدكتور محمد عبد المطلب في كتابه "بناء الأسلوب في شعر الحداثة ؛ التكوين البديعي" والدكتور إبراهيم محمد عبد الله الخولي في كتابه" مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث"

(٢) انظر: النص والخطاب والإجراء٥٦١ ،والعربية من نحو الجملة إلى نحو النص٤١٢

(٣) عنف اللغة ٧٩

(٤) النص والسياق ١٧

(٥) انظر: اللغة واللغويات ٢٠٨ ،والنص والخطاب والإجراء ١٧١ ، ١٧٦وعلم لغة النص ٢٦ -٢٧، ٣٣ -٣٤، ٢٣٨ -٢٣٩، وأصول تحليل الخطاب ٦٩/١ -٧٠

(٦) الجدير بالذكر أنه خلف هؤلاء المتقدمين خلف لحظوا قصور الدرس اللساني الذي لا يجعل دراسة المعنى من أولوياته، لذا(نرى كيتس KATZ وهو من أتباع تشومسكي أساسا يقدم المعنى الذي ظل مدة طويلة ذا قيمة محدودة في الوصف والتحليل اللغويين على مستويات اللغة الأخرى، فالمعنى هو ما يجعل اللغة لغة ، وليست جوانب اللغة كلها إلا جوانب للمعنى ، ويكون علم اللغة نتيجة لذلك دراسة معنى اللغة ، حيث تتجه الوظائف الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية على الوظيفة الدلالية ، وبهذا يتشكل فهم تام ودقيق للغة)علم لغة النص ٨٤ -٨٥ ومن هذا القبيل ما كان من فيرث FIRTH أيضا انظر: أصول تحليل الخطاب ٧٠/١

(٧) انظر: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ٤٠٨وعلم لغة النص ٢٩ -٣٠وأصول تحليل الخطاب ٢٦/١ -٢٧، ٣٦، ٤١والجدير بالذكر أن بعض اللسانيين فيما بعد كهالداي، ورقية حسن وجون ليونز جعلوا النص من الكلام، لا من اللغة بالمفهوم السوسيري لهذين المصطلحين، وذلك لعدم قابليته للضبط والتقنين قابلية، تحقق الحد الأدنى مما يتطلبه الدرس العلمي الموضوعي من الضبط والإطلاق وتجريد الأصول.انظر: أصول تحليل الخطاب ٥٨/١

(٨) النص والسياق ١٩ ، وانظر: التحليل اللغوي للنص ٢٣

لا تحاكي نبض اللغة الحية في مسارها الحياتي الحقيقي النصي، وقد أزعج لوسركل كما يقول(محدودية الألسنية التركيبية التي لم تكن بسبب من طبيعة تكوينها تستطيع تخطي مفهم الجمل القانونية، والتي كانت في مجملها جملا تافهة ،لا تنفع الطالب كثيرا في فهم الأعمال الأدبية)[١]ويقول لوسركل (إن علماء الألسنية عادة يتصورون أن مهمتهم هي ملاحظة الظواهر المطردة، وهي صياغة القواعد التي تشرح هذه الظواهر)[٢](ومن الطبيعي أن يُقَصِّر هذا الكيان المثالي عن بلوغ واقع اللغة)[٣] وفي معرض انتقاده لعدم ملامسة المدرسة التوليدية التحويلية للواقع اللغوي الحي يقول فانديك (وقع التأكيد في النظام التحويلي التوليدي على الأساس المعرفي للغة، ونحن نميل إلى التشديد على الأساس المجتمعي للغة)[٤]أما الدكتور سعد مصلوح فيرى(أن الفهم الحق للظاهرة اللسانية يوجب دراسة اللغة دراسة نصية، وليس اجتزاء للجمل والبحث عن نماذجها ، وتهميش دراسة المعنى كما ظهرت في اللسانيات البلومفيلدية أول أمرها)[٥]ومن هذا القبيل ما نبه عليه غير واحد من الدارسين[٦]من عزوف معظم اللغويين من سوسير مرورا بمدرسة بلومفيد إلى تشومسكي عن دراسة اللغة في عالمها الأسلوبي النصي عامة والشعري خاصة، وقد أدرك – كما سنرى بعد قليل - الخلف من أعلام هذه المدارس قصور الاقتصار على الجملة في دراسة اللغة ، فعدلوا عن ذلك إلى دراستها درساً نصياً حياً في منظور متكامل، وذلك في إطار السعي إلى بلورة نظرية نصية، شُغِل بالعمل على بلورتها علوم متعددة المشارب والاهتمامات ،وفي مقدمتها ما بات يعرف بعلم لغة النص، أو لسانيات النص،أو نحو النص، وهو ما سيكون محور الحديث في الفقرة التالية .

نحو النص ؛ دواعي النشأة والمفهوم والاهتمامات .

اتضح فيما تقدم أن الدرس اللغوي عامة حتى الدرس اللساني الحديث في مراحله الأولى اقتصر في دراسة الظاهرة اللغوية على الجملة، فالجملة عند متقدمي الدرس اللساني الحديث هي المستوى اللغوي التركيبي الأكبر الذي توصف وتحلل من خلاله الظاهرة اللغوية، ذلك أن لسانيات النصف الأول من القرن

---

(١) عنف اللغة ٤٥٧

(٢) عنف اللغة ٢٣١

(٣) عنف اللغة ٩٣. وانظر: ١٠٥، ١٢٦منه .

(٤) النص والسياق ٣٣وقد أخذت المدرسة الوظيفية على التوليدية أيضا إهمالها لتناول اللغة في بعدها الاجتماعي . انظر: اللغة واللغويات ٢٠٠ وعلم لغة النص ٨٤، واللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة٤٠٠ .

(٥) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ٤١٣

(٦) انظر: مفاهيم نقدية ٤٣٣، ٤٧٣، اللغة والإبداع ٤٣، ٥٧ -٥٨، والعربية من نحو الجملة إلى نحو النص ٤١١وأدبيةالنص١٥٧ والأسلوب،دراسةلغويةإحصائية٤٧ -٤٨، ٧٠ -٧٢والنص والخطاب والإجراء٧، ١٤، والتحليل اللغوي للنص ٢٣، وأصول تحليل الخطاب/٣٥حيث يقول الشاوش: أغلب المدارس المتحركة في فلك سوسير وهيمسلاف لم تهمل المستويات المتجاوزة للجملة إلا بمقتضى ما تمليه خطة البحث، فكانت دراسة النص في المدارس البنيوية مشروعا مؤجلا من قبيل الإرجاء ،لا من قبيل الإقصاء .

العشرين أقصت ما يتعلق بالكلام الخاص أي المنجز المستعمل من اللغة، فَعَلَ ذلك سوسير متعللا بكون اللغة شكلا ،لا مادة فاصلا بين لسانيات اللغة ولسانيات الكلام ... وأقصت اللسانيات البنيوية الأمريكية، ولاسيما أتباع بلومفيلد ... المعنى من الدراسة اللسانية إقصاء اتخذ مظهر الإرجاء ... ولم تول المدرسة التوليدية في مرحلتها الأولى المعنى كبير احتفال ، وهي إلى ذلك أقصت صراحة المقام والتنغيم والأسلوب من اهتماماتها، ولم تجعل لهذه المسائل مكانا في الجهاز النظري الذي اعتمدت عليه[١]،وإن لم تقف جميع النظريات[٢] مثل هذا الموقف من المعنى والسياق ... فإن هيمنة بعضها قد كاد يُغِيِّب هذا البعد من الدراسة اللغوية تغييبا تاما ، مما جعل اللغة في هذا الاتجاه من الدرس اللساني مجرد هيكل شكلي منطقي لا حياة فيه، وهذا لا يلائم الواقع اللغوي،ولا يعكس حقيقته التي ندب الدرس اللساني نفسه لوصفها وتحليلها ، لذلك يقول فان دايك (عبارات اللغة الطبيعية ينبغي أن يعاد بناؤها في صورة الأقاويل الخطبية المعبر عنها في النصوص)[٣] ولهذا كان التوجه[٤]إلى جعل النص في مركز اهتمامات الدرس اللساني مع الإفادة في ذلك مما يساعد في إلقاء المزيد من الضوء على قضايا النص من منجزات العلوم الأخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس والذكاء الاصطناعي والتاريخ ونظرية الاتصال،ونظرية الأدب والنقد الأدبي، بل إن الحرص المتبادل بين اللسانيين ودارسي الأدب والنقد الأدبي على أن يفيد كل فريق من منجزات الآخر فيما هو فيه كان سببا من أسباب توسيع الدرس اللساني لاهتماماته بحيث تشمل النص،وفي ذلك يقول أحد اللسانيين(إن اللغوي الذي يصم أذنيه عن الوظيفة الشعرية للغة ، وعالِمَ الأدب اللامبالي بالمسائل اللغوية وغيرَ المطلع على مناهجها لا يواكبان مسيرة التقدم في العلوم في عصرهما ، سواءٌ بسواء)[٥]ويقول الدكتور سعد مصلوح (كانت دراسة الخطاب أو النص واقعة منذ أمد طويل في نطاق علوم أخرى، تتجاذبها، كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والدراسات الأدبية، ولكن النصوص مادة لغوية بالضرورة، ولذلك أحسَّ المشتغلون بهذه التخصصات حاجة ماسة إلى خدمة المعالجة المنضبطة التي تؤديها اللسانيات الحديثة على خير وجه ، أما اللسانيون فقد تيقنوا أهمية هذه الأنواع المتميزة من النصوص ذات الصلة الوثيقة بالكينونة الإنسانية ، ورأوا أن خروجها من دائرة معالجتهم إنما يعزلهم عن طائفة من أظهر تجليات الفعل اللغوي ، هم في أمس الحاجة إليها لفهم نظرية اللغة)[٦] أما محمد الشاوش بناء فيرى أن التيارات النقدية في أواسط الستينات شهدت أزمة

---

[١] لما تقدم في هذه الفقرة انظر: مصادر الحاشية السابقة

[٢] كان لهايمسلاف عناية ملحوظة بالمعنى والسياق والنص .انظر: أصول تحليل الخطاب ٢٦/١ -٣٥

[٣] النص والسياق ٢٥

[٤] انظر: النص والخطاب والإجراء ٦٤ -٦٥، ١٢٢، والتحليل اللغوي للنص ١٧

[٥] الموسوعة اللغوية ٦٠٥/٢

[٦] العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ٤١٤. وانظر: الأسلوب ، دراسة لغوية إحصائية ٩ ، وفي هذا السياق نذكر قول تزفتان تودروف في اللغة والخطاب الأدبي ٤٢ : الأدب ليس مجرد الحقل الأول الذي تمكن دراسته ابتداء من اللغة ، بل إنه الحقل الذي يمكن لمعرفته أن تسلط ضوءا جديدا على خواص اللغة نفسها .

جعلتها تتوجه إلى علم اللغة بحثا عن الحلول للمآزق التي ظهرت فيها، ولم يكن علم اللغة بالأدوات المتوفرة له قادرا على الاستجابة إلى آمال رجال النقد والأدب، ذلك أن عماد الأدب والنقد النصوصُ لا الجملُ ، وفنون الكلام لا أشكاله النظرية المجردة ، لذا وجد اللسانيون في ذلك مطية شرعية للدعوة إلى توسيع موضوع الدراسة اللغوية ليشمل النص والخطاب ويتجاوز حدود الجملة[١] ، وقد نجم عن إحساس اللسانيين بأن من معنيات علمهم دراسة المسائل الأدبية أن صارت الشعرية - وهي بيت القصيد في العمل الأدبي - فرعا من فروع الدرس اللساني عند ياكبسون الذي يرى(أن تحليل النظم يعود إلى كفاءة الشعرية ، ويمكن تحديد الشعرية باعتبارها ذلك الفرع من اللسانيات الذي يعالج الوظيفة الشعرية في علاقتها مع الوظائف الأخرى للغة، وتهتم الشعرية بالمعنى الواسع لا في الشعر فحسب حيث تهيمن هذه الوظيفة على الوظائف الأخرى للغة، وإنما يهتم بها أيضا خارج الشعر حيث تعطى الأولوية لهذه الوظيفة أو تلك على حساب الوظيفة الشعرية)[٢]

ولا شك أنه لم يكن بمقدور الدرس اللساني متوقفا عند حدود الجملة أن يقدم للدرس الأدبي والنقدي ما يفيده فيما هو فيه، لأن الدرس الأدبي والنقد الأدبي يعنيان بالنص كله، ولا يتوقفان عند حدود الجمل في تفسير قضاياه، لذا قوبلت فيما بعد لهذه الأسباب مجتمعة[٣] مواقف المتوقفين في دراسة اللغة عند الجمل بالضيق بها تارة، و بالخروج عنها وتجاوزها تارة أخرى[٤] يقول هاريس في مقال له عام ١٩٥٤(لم يكن هناك ما يدعو إلى الوقوف بمجال التحليل النحوي عند حدود الجملة، ولا ما يقتضيه اقتضاء، بل كان ذلك من قبيل العادة التي دأب عليها الدارسون، لأنهم وجدوا فيما دون الجملة ما يفي بوصف جميع الظاهرة اللغوية)[٥]أما فيرث فقد قابل إغراق اللسانيين في الاهتمام باللغة باعتبارها شكلا مجردا ،وإقصاءهم المعنى من اهتماماتهم ضمانا للموضوعية بنقد شديد مؤاخذا إياهم على إهمال الاستعمال الفعلي للغة في إطار المجتمع ، وما يمكن أن يفرضه البعد الاجتماعي الجماعي من الضوابط والقيود على مستعملي اللغة[٦] ،وأما فان دايك فيقول(جرت العادة في معظم النظريات اللسانية أن تعتبر الجملة كما لو كانت الوحدة الكبرى من

---

[١] انظر: أصول تحليل الخطاب١/٨٠ وما يحسن التنبيه عليه هو أن الشكليين الروس(١٩١٥ -١٩٣٠)أفادوا من قبل في دراسة الأدب من علم اللغة ، ولكن ذلك على ما يبدو لم يكن وفق نظرية نصية عامة تجعل النص عامة مادة متكاملة في الدراسة والتحليل كالذي كان فيما بعد من المعنيين بعلم لغة النص أو نحو النص .انظر: النقد الأدبي والعلوم الإنسانية ٩٠ -٩٢

[٢] قضايا الشعرية ٣٥. وانظر: مفاهيم نقدية ٤٣٥ -٤٣٦

[٣] للتوسع أكثر في الوقوف على هذه الأسباب مما جاء في هذه الفقرة وغيره.انظر: أصول تحليل الخطاب ١/٨٠ -٨٢ والترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب ٣٢ -٣٣

[٤] انظر: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ٤١٠ -٤١١و أصول تحليل الخطاب ١/٦٩

[٥] نقلاً عن أصول تحليل الخطاب ١/٣٨

[٦] انظر: أصول تحليل الخطاب ١/٧٠

نوع التركيب الصرفي والتركيب النحوي ... ونحن نتمنى أن نبين... أن هذه الطريقة في التناول أو المقاربة غير سليمة ولا كافية)[١]

لما تقدم كله كان من الطبيعي التفكير في أن يكون الدرس اللساني الحديث للغة الطبيعية أكثر واقعية وملامسة للظاهرة اللغوية في سيرورتها الحياتية الطبيعية ، ولوحظ أن ذلك لا يكون إلا بوصف اللغة وتحليلها في بعدها النصي الحي والواقعي،وذلك في ضوء نظرية نصية تنظر[٢]إلى النص بغض النظر عن الخلاف[٣]الحاد في مفهومه على أنه بنية قصدية دالة محكومة بنظامها الخاص المتمثل بعلاقات التأثر والتأثير المتبادلة بين مختلف العناصر المكونة للنص بمختلف تجلياتها وماهياتها،وفي مقدمة ذلك الثالوث الذي تقوم عليه نظرية الاتصال، وهو المرسل والمتلقي والرسالة اللغوية بمختلف مكوناتها الصوتية والصرفية والنحوية التركيبية، والدلالية الجزئية الخاصة والكلية النهائية العامة والناتجة عن تفاعل مختلف القرائن المكونة لسياق الاستعمال على تنوع تجليات هذه القرائن وماهياتها اللغوية وغير اللغوية من نفسية و مقامية واجتماعية وثقافية فكرية عامة، مع النظر إلى ذلك كله بمنظار تداولي تواصلي مؤسسٍ على العناية بتفاصيل علاقات التأثر والتأثير المتبادلة بين مختلف هذه المكونات والعناصر المنجزة للنص، والمسؤولة عن إنجاز النص لنصيته بأبعادها وتجلياتها المختلفة.

وقد أفضت هذه التطلعات والرؤى الجديدة بالدرس اللساني إلى ما يعرف [٤]بعلم لغة النص، أو لسانيات النص،أو نحو النصوص، أو نحو النص الذي يمكن أن يقدم تصورات أساسية للوصف والتحليل النصيين كما يحاول التوصل إلى نظرية نصية كلية قادرة على استيعاب الأشكال النصية المختلفة من خلال تقديم أسس للتصنيف والتمييز، تتصف بالشمول[٥]

ويرى المعنيون[٦]أن دراسات متناثرة تناولت بعضا من قضايا النص قبل زيليخ هاريس الذي تمثل أعماله البداية الفعلية لنحو النص، لأنه حاول أن ينقل المناهج البنيوية التوزيعية في التحليل وإقامة الأقسام إلى مستوى النص ... ولم يكن ذلك عند هاريس من باب التأسيس، بل من باب التعديل والتأهيل لنظريته

---

(١) النص والسياق ١٩.

(٢) انظر: علم لغة النص٧١، ٨٥، ٨٩، ٩٦، ١٠٦، ١١٢، ١٣٥وأصول تحليل الخطاب ٣٩/١، ١٠٦ -١٠٩

(٣) انظر لذلك : التحليل اللغوي للنص ٢١،وعلم لغة النص ٩٤ ،٩٩، ١٢٢

(٤) الملاحظ أن بين دلالات هذه المصطلحات من التداخل ما سوَّغ لبعضهم استخدام أحدها موضع الأخر، فعند سعيد بحيري مثلا في "علم لغة النص" من الصعب أن تميز بين الحديث عن علم لغة النص، و الحديث عن نحو النص.وانظر: علم اللغة والدراسات الأدبية ١٨٣ونحو النص ٣٢ لعفيفي ، وأصول تحليل الخطاب ٣٩/١ ، ٧٩ والترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب ٣١

(٥) علم لغة النص ٦٥، وانظر ٧٨

(٦) انظر: علم لغة النص ٢٩ -٣٠ وأصول تحليل الخطاب ٧٥/١ -٧٦

التي تعد تطويرا لأفكار سوسير[١]وهذا ما كان أيضا لدى أتباع النظرية التوليدية التحويلية [٢]الذين طوروا هم أيضا نظريتهم على نحو يمكنها من تناول اللغة في بعدها النصي ، مما يعني بوضوح أن نحو النص ورث الدرس اللساني الذي سبقه ،وطور أدواته،ووسَّع مداراته،ومن معالم ذلك الإفادة من مناهج ومعطيات علوم غير لغوية[٣] تساعد على النظر في النص من مختلف جوانبه ومن ذلك علم النفس والذكاء الاصطناعي والإعلام والتاريخ وعلم الاجتماع والأدب والنقد الأدبي، لذا يقول فان دايك (إن ما سجلته من ملاحظات لم يكن مأخوذا من نمط خاص من النحو، بل ... إن أدواتي مستعارة من بعض مجالات الفلسفة والمنطق الفلسفي، وعلم النفس المعرفي، والذكاء الاصطناعي)[٤]ويقول دايك (ليست جميع الخواص المطردة للخطاب تنتسب إلى مجال النظرية اللسانية والنحوية ، ذلك أن القواعد المتواضع عليها ، وشروط الدلالة والمرجع والتأويل وكذلك استعمال معرفة العالم والفعل التداولي ووظائفه، أقول إن كل تلك الأمور قد يصح أن تدمج في اهتمام تحليل الخطاب اللساني ... وبالطبع فإن أولى الدراسات الفرعية هي علم النفس، وما شابه من دراسة علاقة اللسان بالمجتمع، وما يتصل بالخطاب، وهي دراسات عندما يشرع فيها نصبح قادرين بفضلها على وضع قاعدة تجريبية للتناول اللساني للخطاب... وكثير من الأعمال المهمة من الخطاب إنما تم خارج اللسانيات مثل علم الأنثربولوجيا "دراسة الإنسان" والاجتماع والخطابة والآداب)[٥]

والجدير بالذكر أن تعدد موارد نحو النص ومصادره اللسانية وغير اللسانية أغناه وأمده برؤى وآفاق ومناهج متعددة ومتباينة المنطلقات والغايات، مما يسمح بسبر أغوار النص مفهوما ومكونات ووظيفة، على أن من الحق أيضا أنه كان لهذا التنوع وذلك الغنى في المكونات الفكرية والمنهجية لنحو النص الأثر البالغ في خلافات[٦]متفاقمة وحادة على القضايا التي قام لها وعليها هذا العلم ،فقد اختلف المعنيون به في تحديد آفاقه، وفي تعريف النص،وفي تحديد مفهومه[٧] وفي آليات تحليله.على أن ذلك كله لا ينفي أن هذا العلم

---

(١) انظر: علم اللغة والدراسات الأدبية ١٨٥و علم لغة النص٣٠ -٣١، ٥٩ وأصول تحليل الخطاب١/٧٦ ، /٧٨ -٧٩ و نحو النص ٢٠ لبوقرة ، والعربية من نحو الجملة إلى نحو النص ٤٠٧

(٢) انظر: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ٤١١ و نحو النص ٨ -٩ لبوقرة ، وعلم لغة النص٥٩

(٣) انظر: السياق والنص ٣٠ -٣١ وعلم لغة النص ٩، ١٨ ونحو النص ١٩ لبوقرة ، ونحو النص ١٠ -١١، ٧٧ لعفيفي ، وأصول أصول تحليل الخطاب ١/٧٧

(٤) النص والسياق ١٤. وانظر ٣٣ -٣٤منه .

(٥) النص والسياق ٣٠ -٣١

(٦) انظر: علم لغة النص ٧٢ -٧٥، ١٣٠

(٧) يقول الدكتور بحيري في "علم لغة النص" ٥٥ -٥٦ السؤال حول ماهية النص وأجزائه لا يزال موضع خلاف كبير، وبالتالي يكون السؤال: هل يعد النص وحدة أساسية قابلة للتجزئة إلى عناصر صغرى أم لا ؟ يمثل صعوبة جوهرية من الصعوبات التي تواجه الوصف والتحليل في هذا الاتجاه النصي ، ولا غرابة إذن في أن النماذج التي تعد الجملة أساس الوصف والتحليل ما تزال لها الغلبة والسيطرة على مسار البحث اللغوي .

ـ رغم[1] معارضة البعض له ـ شغل حيزا واسعا من الدرس اللساني في النصف الثاني من القرن العشرين على أن الملاحظ أن من مقومات نحو النص ومقولاته ما يمكن استثماره فيما نحن فيه من أمر اللغة الشعرية ، وذلك على نحو انتقائي ، يكتسب مشروعيته من الحق في أن يستضيء المرء فيما هو فيه بمعطيات مختلف العلوم والمعارف، وذلك بغض النظر عن مصدرها أو زمانها أو مكانها، وهذا ما أرجو أن يتضح في التناول التالي لبعض معطيات نحو النص موظفة في مناقشة خصوصية اللغة الشعرية وغيرها.

اللغة الشعرية في ضوء معطيات نحو النص .

لعله من المناسب للتأطير التنظيري للغة الشعرية أن يفيد من التأطير التنظيري لطبيعة العلاقة بين نحو الجملة المعني بالجملة فقط - كما لاحظنا - وبين نحو النص الذي من معنياته صياغة نظرية نصية ، همها النص ماهية ووظيفة، وآلية عمل ، وغني عن التأكيد والبيان أن ما يسمح بإسقاط مقولات نحو النص على الجهاز المفاهيمي لنظرية اللغة الشعرية، أمران أساسيان ؛ أولهما هو الماهية اللغوية المشتركة للمادة المدروسة في كلا الحقلين والتي تمثل قاسما مشتركا بينهما، مما أباح، بل تطلَّب كما لاحظنا أن يفيد كل منهما من منجز الآخر، وأما الأمر الثاني ما لاحظناه من أن إعادة النظر في بعض المسائل الأدبية والنقدية كانت من الأسباب الجوهرية التي عملت على وجود نحو النص في الدرس اللساني ،يضاف إلى ذلك كله أن النص الشعري في النهاية جنس من أجناس نوع النص عامة، وهذا ما يشجع على النظر إلى بعض ملابساته في ضوء معطيات نحو النص، وهو ما سنحاوله فيما يلي من هذه الدراسة .

اللغة الشعرية بين نمطية نحو الجملة وتعددية نحو النص

الملاحظ أن موقف اللغة الشعرية من مرجعية اللغة النفعية العادية تتفق إلى حد بعيد وموقف نحو النص من معطى نحو الجملة، فقد لاحظنا أن فصيلًا واسعاً من المعنيين باللغة الشعرية وبنظرية الأدب يرون أن الخطاب الأدبي عامة و الشعري خاصة يقوم في الدرجة الأولى على استثمار معطى اللغة النفعية العادية استثمارا، يبقي حبال الود موصولة بينه وبين هذه اللغة، ويسمح له في الوقت نفسه بقدر من الاستقلالية والخصوصية، يُمَكِّن هذا الخطابَ من التعبير عن أبعاده الجمالية والشعرية ، ولا يعني ذلك بالضرورة

---

[1] لمعارضة بعضهم لنحو النص انظر: علم لغة النص٥٧ -٥٨ وأصول تحليل الخطاب ١/ ٧٦ -٧٧حيث يذكر الشاوش أن أعمالا تعد بالمئات نشرت بين عامي ١٩٧٨و١٩٩٠ تحت عنوان " تحليل الخطاب " أو لسانيات النص "ومع ذلك يقول في١/ ٧٩ -٨٠ ليس من المبالغة أن نذهب إلى أن ما كتبه الدارسون في الاستدلال على شرعية قيام النص موضوعا من مواضيع الدراسة اللسانية، وعلى قيامه وحدة وكيانا لغويا يكاد يساوي من حيث الكم ما كتب في تناول القضايا الجزئية التي تناولوها في نحو النص٠٠٠على أنه قد بدا لنا في كثرة المناسبات والمواضع التي وقفوا فيها للاستدلال على شرعية نحو النص قيمة ، لا تجدها فيما استدلوا به عليه من البراهين والأدلة ، وذلك أن وقوفهم على هذه المسألة لم يكن ليطول على هذا النحو لولا إلحاح الشك عليهم في شرعيتها، إذ من المعلوم أن الاستدلال لا يكون في البديهيات ،إنما يكون في نقيضها، أو فيما خَفِيَ و دقَّ منها .

تخريباً أو تكسيراً للقواعد والأحكام التي يقوم عليها نظام اللغة العادية أو النفعية، كما أنه لا يحول دون أن يأتي المنشئ لأغراض فنية جمالية ببعض ما ليس معمولا به في اللغة النفعية العادية، وهذا التصور لطبيعة اللغة الشعرية يتفق وما كان من دعاة نحو النص الذين تمردوا على نحو الجملة لشعورهم كما اتضح بقصوره عن دراسة اللغة في مسيرتها الطبيعية، وعن وصف وتحليل النص الذي يمثل البعد الحقيقي والواقعي للغة ، ولكن ذلك لا يعني عندهم أن نحو النص يغني أو يستغني عن نحو الجملة ، بل يعني فيما يعنيه على حد تعبير برند شبلنر(توسيع النحو المألوف القائم على الجملة ليمتد إلى نحو النص)[١] وهذا ما يصدر عنه في تحليل النصوص بوغراند [٢] و فان دايك[٣]، والذي رأى أن نحو الجملة جزء من نحو النص[٤]، ذلك أن لكل منهما دوره وحدوده، فلا يغني أحدهما عن الآخر، وذلك لما بينهما من التداخل في المكونات والاهتمامات[٥] يؤيد ذلك ويوضحه عمليا تحليلاتهم النصية القائمة في جانب كبير منها على استثمار قواعد وأحكام نحو الجملة بالمفهوم العام لنحو الجملة هذا، فالإجراءات التحليلية لنحو النص(تجمع بين الوصف الفونولوجي والمورفولوجي والتركيبي والدلالي والمنطقي والنفسي والاجتماعي والثقافي بشكل عام)[٦] مع الإقرار في الوقت نفسه بأن كثيرا مما وصف بالشذوذ أو الضرائر في نحو الجملة يمكن أن يجد له نحو النص

---

[١] علم اللغة والدراسات الأدبية ١٨٩.وانظر: علم لغة النص ١٨٣ ، والتحليل اللغوي للنص ٢٤، ٢٨ -٢٩.

[٢] انظر: النص والخطاب والإجراء ٤٣٠ -٤٣٨

[٣] يقول دايك (من المعلوم أننا لو أخذنا هذا المفهوم ، مفهوم النحو في معناه الضيق لم يمكن قط أن تكون قلة خصائص الخطاب معتدا بها، ولا معللة، ولكن من ناحية أخرى إذا تهيأ لنا أن نحمل مفهوم النحو على أوسع معانيه وأدقها من الناحية المنهجية بإدراجنا المكون الدلالي ، والمرجع الدلالي، وشروط التأويل الناتجة عن معرفة العالم الدلالية ، وكذلك علم السيمانطيقا الكلي كنا حينئذ قادرين أن نفسر كثيرا من الخصائص العامة للخطاب من خلال النحو ذاته ... فنحن نميل مبدئيا إلى اقتراح تصور واسع للنحو، والسبب الرئيسي لتفضيل هذا الاختيار هو أن نستطيع تفسير وتعليل عدد كبير من ضروب التعميم في كل من الجمل والخطاب في حدود أو ألفاظ نفس الإطار النحوي)النص والسياق ٢ويبين دايك أن تحليل الجملة هو الأساس في معرفة البنيات الكبرى للنص فيقول(بعبارة أخرى فإن البنيات العامة الكبرى هي من المستوى الشامل في الوصف السيمانطيقي لكونها تُعَيِّن أجزاء الخطاب وكليته على أساس من المعاني الجزئية للجمل ٠٠وعلى ذلك يجب كما في حالة أي نظرية لسانية متزنة أن تصاغ القواعد على نحو مطرد مما يربطها بالتمثل الدلالي للجمل في توالي انتظامها على المستوى الشامل)النص والسياق ٢٤، وانظر ٢٩ -٣٠ منه، فدايك في تصوره لنظريته في نحو النص المنشود يصدر عن التمسك بالعناية بالجملة ونحوها

[٤] انظر: علم لغة النص ١٨٣

[٥] يقول الدكتور أحمد عفيفي ص٩١ من "نحو النص" لعل ذلك التداخل بين نحو النص ونحو الجملة يعطينا النتيجة التي تؤكد أن نحو النص لا يرفض نحوَ الجملة رفضا مطلقا ،إنما يقف به عند هذا الحد تاركا له العلاقات داخل الجملة ، ومتجاوزا ذلك إلى مسرح النص على اتساعه ، ويقول الدكتور عفيفي ص١٣٣ نرفض أن نشيع جثمان النحاة التقليديين مع بول روبتس، لأن نحو الجملة لم يفقد قيمته ، فما زال نحو الجملة يقوم بدوره من خلال الحفاظ على المعنى الجملي الذي هو أساس المعنى النصي ، ولهذا فلكل حدود معينة ، وليس لأحدهما أن يقوم بإلغاء الآخر ، فهما فرعان لعلم واحد، هو النحو، فالحاجة إليهما معا ضرورية . انظر: النص والخطاب والإجراء ٥٦١. والعربية من نحو الجملة إلى نحو النص ٤١٤

[٦] نحو النص ٩ لبوقرة

تفسيرا مقنعا، وذلك لأنه ينظر إليه متفاعلا متكاملا في دوره المتآخذ ،أو المتكامل مع أدوار سائر العناصر المكونة للنص والمنجزة لنصيته و المسؤولة مجتمعة عن قيام النص بوظيفته[١] فالانحرافات المتعددة المستويات قابلة في النظرية النصية للتصويب الذاتي، أي إنها تعدل عن المستوى العادي بكسر بعض القواعد ٠٠وهذا الانحراف الذي يتجلى في النص يدركه المتلقي بفضل العلامة المحيطة به والسياق القائم فيه)[٢]وفي هذا السياق يقول جينوت genot (ما يمكن أن يوجد من فساد في بعض الجمل المكونة للنص يمكن أن ينقلب استقامة بفضل حلوله في النص من حيث هو كل)[٣] و هذا يشي بأن نحو الجملة يقدم المعيار المنظم لبنية الجملة، أما نحو النص فمن مهامه استخراج الضوابط الخاصة بكل نص في استثماره لمعطى نحو الجملة استثمارا خاصا، وذلك بالكشف عما يطرد في هذا النص من البنى المتآخذة والمتكاملة صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا، مما يفضي إلى ما يعرف لدى البعض بالآجرومية الخاصة بالنص كما يفضي إلى تعدد أنحاء النصوص بتعدد النصوص نفسها [٤]، وكل ذلك يؤنس بمقولة ، مفادها أن خصوصية اللغة الشعرية هامش ما من المناورة اللغوية ، حدودها وآفاقها نمطية نحو الجملة وتعددية نحو النص . على أن نحو النص لم يقتصر في مهامه على الكشف عن الآجرومية الخاصة بكل نص من النصوص ، بل سعى إلى بيان ما به يكون النص نصا، وهو ما يمكن أن نسميه بمقومات النصية عند المعنيين بالدرس النصي، ويبدو أن النظر في هذه المقومات مما يفيد في مناقشة بعض قضايا النص الشعري ، وهذا ما سنحاول مقاربته في الفقرة التالية .

مقومات النصية ودلالة النص الشعري

من المحروص عليه في النظرية النصية بيان ما به يكون الملفوظ نصا، وقد قصَرَتْ بعضْ مدارس الدرس النصي ذلك على اتساق النص أو ترابطه، وهو ما يلاحظ عند هاليداي ورقية حسن [٥]، وتوسع روبرت

---

[١] العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ٤١٦ ونحو النص ١١ للنحاس

[٢] بلاغة الخطاب وعلم النص ١٦٧وانظر: علم لغة النص ٦٧.

[٣] نقلا عن " أصول تحليل الخطاب ١٠٧/١

[٤] انظر: البلاغة والأسلوبية ٧١، ونحو النص ١٣٢ لعفيفي، وعلم لغة النص ١٢٣ -١٢٤ ،١٨٣وفي هذا السياق يقول الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف في "اللغة وبناء الشعر" ٧١(للقصيدة نحوها الخاص بها برغم خضوعها لنحو اللغة العام) أما الدكتور صلاح فضل فيقول في"بلاغة الخطاب وعلم النص" ١٠٧(ما يستحق التركيز عليه هو كيفية الانتقال في النظرية السيميمولوجية من الجملة إلى النص، إذ إن هذا الانتقال لا يعود مطلقا إلى مجرد معايير التوسع الكمي في الأبعاد، بل على العكس من ذلك يتصل بتغير نوعي أخذ يسمح بتكوين ما يسمى بآجرومية النص حيث تأكد أن المعنى الكلي للنص والمعلومات التي يتضمنها - خاصة التقنية الجمالية – أكبر من مجموع المعاني الجزئية للجمل ٠٠بكلمات أخرى تبين أن هذه الدلالة الكلية للنص تنجم عنه باعتباره بنية كبرى شاملة .. فالنص يُنْتِج معناه إذن بحركة جدلية لا تتمثل في الانتقال من الجزء إلى الكل ، إنما على وجه الخصوص بالتكييف الدلالي للأجزاء في ضوء البنية الكلية الشاملة)

[٥] انظر: لسانيات النص١٢، وأصول تحليل الخطاب ١٠٦

دي بوغراند ودسلر في ذلك ، فجعلا[١]مقومات النصية سبعة ، وهي القصد والسبك والحبك والمقبولية والموقفية أو المقامية ، والتناصية والإعلام ، والذي يعنينا من أمر هذه المقومات أن أخذها بعين الاعتبار مجتمعة يحمل على النظر في بعض قضايا النص عامة ، والنص الشعري خاصة، فهذه المقومات مجتمعة تعني فيما تعنيه خضوع الأطراف المشاركة في النص، ولاسيما المنشئ والمتلقي في تعاملها مع هذا النص لحقيقة خضوع الظاهرة اللغوية عامة لعاملي الذاتية والموضوعية، مما يعني ضرورة النظر إلى تأويل دلالة النص وانفتاحه الدلالي أو انغلاقه في ضوء هذه الحقيقة، فمقومات القصد و المقبولية و الإعلام من مقومات نصية النص التي تعني فيما تعنيه أن المنشئ والمتلقي ركنان أساسيان[٢] في نصية النص ، فالمنشئ فيما يعنيه القصد والإعلام يستودع النص مقولة ، يريد إيصالها إلى المتلقي، والمتلقي فيما يعنيه القصد والمقبولية هو المقصود بالرسالة، لذلك يكون له أثر في معالم [٣]تشكيل المنشئ لها، وكلاهما يساهم في تحقيق ما يتطلبه النص من السبك والحبك أو الاتساق والترابط النصي، وهما في تعاملهما مع النص إنشاء وتلقيا وتأويلا وتذوقا ليسا مطلقي الحرية ، بل مقيدان بمعطيات نصية تنطوي على قدر من الموضوعية ،لا يمكن إغفاله لدى التعامل مع الظاهرة اللغوية، سواء أكان ذلك التعامل ممارسة للغة أم وصفا وتحليلا لها، وفي مقدمة هذه المعطيات القرائن المكونة للسياق المقامي للنص، ومن هذه المعطيات الأحكام التي يقوم عليها نظام اللغة الصوتي والصرفي والنحوي وغير ذلك من مكونات النص التي تتحلى بقدر لا يستهان به من الموضوعية بغض النظر عما يكون للتمثل الشخصي من أثر في الحد من هذه الموضوعية، وهذا يؤكد حقيقة أن طرفي الحدث اللغوي الأساسين؛ المنشئ والمتلقي خاضعان بنسب متفاوتة للعاملين الأساسين المتحكمين بالظاهرة اللغوية عامة،

---

(١) انظر: النص والخطاب والإجراء ١٠٣ -١٠٥ وعلم لغة النص ١٢٧

(٢) انظر: تحليل الخطاب الشعري ١٢٣، ١٢٤، ١٣٤ -١٣٥ الملاحظ أنه على أهمية كل من المنشئ والمتلقي في تحقيق نصية النص اختلفت أهمية كل منهما في عملية التواصل والتأويل لدى محللي النص كما اختلفت عنايتهم بأحدهما دون الآخر انظر: علم لغة النص١٤٠ -١٤٣، ١٥٧ -١٥٩، وذكر محمد خطابي في" لسانيات النص" ٤٨ -٥١أنَّ نظرية براون ويول في تحليلهما الخطاب قائمة على درجة واحدة من العناية والاهتمام بكل من المنشئ والمتلقي ، وذلك خلافا لما أكده محمد الشاوش في" أصول تحليل الخطاب" ١/ ١٥٥، ١٥٨، ١٧٨من أنهما اهتما في ذلك بالمتلقي أكثر من اهتمامهما بالمنشئ ،والصواب ما ذهب إليه الخطابي من أنهما على درجة واحة من الاهتمام في تحليل النص بكل من المنشئ والمتلقي إضافة إلى عنايتهما بمختلف معطيات سياق النص. انظر: تحليل الخطاب :ك، ٣٠ -٣٣، ٣٥ -٣٦أما رولان بارت فقد أمات المؤلف كما سنرى بعد قليل، وأما هاليداي ورقية حسن في كتابهما " الاتساق في اللغة الإنكليزية" فقد أوليا المنشئ ودوره في الخطاب أهمية بالغة خلافا لموقفهما من المتلقي .انظر: لسانيات النص ١٢ -١٤، ٢٥ وفي الموضوع نفسه تقول جوليا كريستيفا(الكلمة الأدبية ليست نقطة /معنى ثابتا/ بل هي موضعٌ ، تتصالب فيه وجوه النص، هي نقطة تتحاور فيها عدة كتابات؛ كتابة الكاتب، وكتابة المتلقي، وكتابة السياق الثقافي الراهن أو السابق)النقد الأدبي والعلوم الإنسانية ١٢٨.

(٣) ممن تحدث عن أثر المتلقي في تحديد المنشئ لتشكيل نصه ج. براون ، وج. يول في كتابهما " تحليل الخطاب"٣٠. وانظر: الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية ٢٢ -٢٤

وهما العامل الذاتي والعامل الموضوعي ، مما يعني أن النصوص عند المتلقي تتحلى بنسب متفاوتة من الانفتاح والانغلاق الدلالي، وهذا يوحي - نظريا على الأقل - بوجود نص مغلق على دلالة واحدة، وآخر منفتح على دلالات متعددة، وغني عن التوكيد والبيان أن الذي يحدد الدرجة التي يحتلها النص على سلم قياس انفتاح النص الدلالي وانغلاقه إنما هو الوظيفة التي تقوم بها اللغة في هذا النص، فالنص الذي تقتصر وظيفة اللغة فيه على التواصل النفعي العادي يحتل أعلى درجات الانغلاق الدلالي، ومن هذا القبيل النصوص القانونية والتشريعية والعلمية ، أما النص الذي تقتصر وظيفة اللغة فيه على الوظيفة التأثرية الذاتية والمغرق في التجريد فيحتل أعلى درجات الانفتاح الدلالي، ومن هذا القبيل ما يعرف عند بعضهم بالشعر التجريدي في الشعر العربي الحديث[١]والشعر الصوفي في تاريخ الشعر العربي[٢]ولعل ما تقدم يؤكد حقيقة أن الانفتاح أو الانغلاق الدلالي مسألة نسبية في النص، تتحكم بها إلى حد بعيد الوظيفة المهيمنة على النص على حد تعبير ياكبسون، وهذا يستوجب ضرورة الاحتراس والتقييد في استقبال مقولات من قبيل موت المؤلف، وانفتاح النص على ما لا نهاية له من الدلالات، وذلك بدعوى أن النص مفتوح ، ينتجه القارئ في عملية مشاركة، لا مجرد استهلاك، وبدعوى أن هذه المشاركة لا تتضمن قطيعة بين البنية والقراءة، وإنما تعني اندماجهما في عملية دلالية واحدة، لأن ممارسة القراءة إسهام في التأليف كما يقول رولان بارت[٣]، وهذا الكلام بإطلاقه لا ينطبق إلا على النصوص المغرقة في الذاتية و التأثرية والتجريد، لذا استقبله البعض[٤]بما رغبت هذه الفقرة في التدليل عليه من ضرورة الاحتراس والتقييد في استقباله .

---

(١) انظر: أساليب الشعرية المعاصرة ٢٤٩وما بعدها ولاسيما ص٢٥٢.

(٢) انظر: نحو النص ١٢٩ للنحاس

(٣) انظر: علم لغة النص ١٠٣، ١٤٢والترابط النصي في الضوء التحليل اللساني للخطاب ٢٨

(٤) انظر: المرايا المحدبة ١٠٥، علم لغة النص ١٠٣، ١٤٢وأصول تحليل الخطاب ١١٢ -١١٣، وحدود الانفتاح الدلالي في قراءة النص الأدبي : ٧٦ -٧٨، ٨٣ -٨٧، ٩٢ -١٠٠.

مصادر البحث ومراجعه

(١) الإبداع الموازي . د . محمد حماسة عبد اللطيف .ط. دار غريب .القاهرة٢٠٠١

(٢) أدبية النص . د. صلاح رزق .ط.دار غريب. القاهرة٢٠٠٢

(٣) أساليب الشعرية المعاصرة . د . صلاح فضل . ط١ بيروت ١٩٩٦

(٤) الأسلوب ؛ دراسة لغوية إحصائية . د. سعد مصلوح .ط١ القاهرة ٢٠٠٢

(٥) أسلوبية الفرد.عبد الفتاح المصري . مجلة الموقف الأدبي. ع . ١١٣٥ -١٣٦.دمشق. ١٩٨٢

(٦) الأسلوبية ،مدخل نظري ودراسة تطبيقية . د. فتح الله أحمد سليمان.ط مكتبة الآداب.القاهرة ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م.

(٧) أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية. محمد الشاوش . ط . جامعة منُّوبة. تونس ٢٠٠١

(٨) اكتساب اللغة . ما رك رشل . تر. د. كمال بكداش .ط١. بيروت ١٩٨٤

(٩) الألسنية، علم اللغة الحديث المبادئ والأعلام . د . ريمون طحان. ط٢ بيروت ١٩٨٣

(١٠) أوهاج الحداثة. د. نعيم اليافي . ط١ اتحاد الكتاب العرب . دمشق ١٩٩٣.

(١١) بلاغة الخطاب وعلم النص . د . صلاح فضل.عالم العرفة .الكويت١٩٩٢

(١٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان. د.إبراهيم سلامة . ط٢.المكتبة الأنجلو المصرية.القاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

(١٣) بناء لغة الشعر. جون كوين. تر. د. أحمد درويش. ط٣. دار المعارف القاهرة ١٩٩٣

(١٤) البنيات الأسلوبية في الشعر العربي الحديث. د. مصطفى السعدني .ط الإسكندرية ١٩٩٠

(١٥) تحليل الخطاب . ج .براون، وج .يولِ.تر. د.محمد لطفي الزليطي وزميله. ط جامعة الملك سعود . الرياض ١٤١٨هـ -١٩٩٧

(١٦) تحليل الخطاب الشعري ؛ استراتجية التناص . د.محمد مفتاح . ط١.الدار البيضاء ١٩٨٦.

(١٧) تحليل النص الشعري.يوري لوتمان .تر. د. محمد أحمد فتوح.ط١. النادي الثقافي الأدبي بجدة ١٩٩.

(١٨) التحليل اللغوي للنص ؛ مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج . كلاوس برينكر . تر . د. سعيد حسن بحيري . ط١مؤسسة المختار للنشر والتوزيع . القاهرة ٢٠٠٥.

(١٩) الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب.خليل ياسر البطاشي. ط. دار جرير ٢٠٠٩م

(٢٠) الجملة في الشعر العربي.د. محمد حماسة عبد اللطيف. ط١.مكتبة الخانجي .القاهرة ١٩٩٠

(٢١) الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربية المعاصرة . بحث للدكتور عبد الله أحمد المهنا. عالم الفكر الكويتية . مج ٩. ع ٣ . ١٩٩٨.

(٢٢) الحداثة في الشعر العربي المعاصر.د.وليد قصاب.ط١دار القلم .دبي١٩٩٦.

(٢٣) حدود الانفتاح الدلالي في قراءة النص الأدبي .بحث للدكتور محمد عدمان . مجلة عالم الفكر الكويتية .ع٣. مج . ٣٧ -٢٠٠٩.
(٢٤) حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر.د. كمال خير بك.ط٢ بيروت ١٩٨٦
(٢٥) الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية.د.عبد الله محمد الغذامي ط١النادي الأدبي الثقافي بجدة ١٩٨٥.
(٢٦) الخصائص . ابن جني . تح محمد علي النجار .ط٢ دار الهدى للطباعة بيروت
(٢٧) دراسات مختارة في نظرية الأدب. د. أحمد محمد ويس . ط١ دار كيوان.دمشق٢٠٠٩
(٢٨) دلائل الإعجاز. عبد القاهرالجرجاني.ط محمد رشيد رضا ط دار المعرفة .بيروت١٩٨١.
(٢٩) دلالة الألفاظ . د . إبراهيم أنيس . ط٦ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩١
(٣٠) الشعرية والثقافة. د. حسن البنا عز الدين .ط١ المركز الثقافي العربي . بيروت – الدار البيضاء ٢٠٠٣
(٣١) شعرية الشعر. د.قاسم المومني.ط١. المؤسسة العربية للدراسات والنشر .بيروت ٢٠٠٢
(٣٢) ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث.علاء الدين رمضان السيد.ط١ اتحاد الكتاب العرب . دمشق١٩٩٦
(٣٣) ظواهر نحوية في الشعر الحر، دراسة نصية في شعر صلاح عبد الصبور. د. محمد حماسة عبد اللطيف. ط١ مكتبة الخانجي.القاهرة ١٩٩٠
(٣٤) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص. د. سعد مصلوح . بحث في الكتاب التذكاري المهدي للأستاذ عبد السلام هارون . جامعة الكويت – كلية الآداب ١٩٨٩
(٣٥) علم اللغة . دانييل مانيس . تر . سهيل عثمان وعبد الرزاق الأصفر . مجلة الموقف الأدبي ع. ١٣٥ -١٣٦دمشق ١٩٨٢.
(٣٦) علم اللغة والدراسات الأدبية.برند شبلنر. تر.د. محمود جاد الرب.ط١ الدار الفنية للنشر والتوزيع.١٩٨٧.
(٣٧) علم لغة النص ؛ المفاهيم والاتجاهات. د. سعيد حسن بحيري .ط١ مؤسسة المختار.٢٠٠٤م
(٣٨) عنف اللغة. جان جاك لوسركل. تر.د.محمد بدوي ط٢.المنظمة العربية للترجمة. بيروت ٢٠٠٦
(٣٩) فصول في علم اللغة العام . فردينا ن دي سوسير . تر . أحمد نعيم الكراعين . ط دار المعرفة . الإسكندرية
(٤٠) فن القول . أمين الخولي . ط ١٩٤٧.
(٤١) قضايا الشعرية.رومان ياكوبسون .تر. محمد الولي ،ومبارك حنون . ط . دار توبقال.الدار البيضاء. ١٩٨٨
(٤٢) لسانيات النص ؛ مدخل إلى انسجام الخطاب. د. محمد خطابي . ط٢ المركز الثقافي العربي. بيروت – الدار البيضاء . ٢٠٠٦

(٤٣) اللغة الشعرية عند النحاة . د . محمد عبدو فلفل. ط١ دار جرير . عمان ٢٠٠٧.
(٤٤) اللغة والإبداع . د . شكري عياد . ط١ أنترناشيونال ١٩٨٨.
(٤٥) اللغة والإبداع الأدبي . د. محمد عبد الله. ط٢. الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي. القاهرة ٢٠٠٧
(٤٦) اللغة والكلام في التراث النحوي العربي. بحث للدكتور محمد الغامدي.مجلة عالم الفكر الكويتية. ع.٣مج.٣٤العام٢٠٠٦م.
(٤٧) اللغة بين البلاغة والأسلوبية .د.مصطفى ناصف. ط . النادي الأدبي الثقافي بجدة ١٩٨٩.
(٤٨) اللغة الفنية ؛ بحوث مختارة .تر. د. محمد حسن عبد الله . ط دار المعارف . القاهرة ١٩٨٥.
(٤٩) اللغة وبناء الشعر. د. محمد حماسة عبد اللطيف. ط١.القاهرة ١٩٩٢.
(٥٠) اللغة والخطاب الأدبي (مقالات لغوية في الأدب) اختارها وترجمها سعيد الغانمي .ط١ المركز الثقافي العربي . بيروت – الدار البيضاء ١٩٩٣
(٥١) اللغة واللغويات.جون لوينز. تر . د . محمد العناني . ط١. دار جرير .عمان ٢٠٠٩.
(٥٢) المرايا المحدبة . عالم المعرفة .الكويت١٩٩٠.
(٥٣) مفاهيم نقدية.رينيه ويليك. تر. د.محمد عصفور. ط عالم المعرفة.الكويت . ١٤٠٧هـ ١٩٨٧
(٥٤) مقالات في الأسلوبية. د . منذر عياشي . ط . اتحاد الكتاب العرب . دمشق١٩٩٠
(٥٥) الموجز في تاريخ البلاغة. د. مازن المبارك. ط . دار الفكر دمشق .
(٥٦) الموسوعة اللغوية. تحرير. د.ن. ي. كولنج .تر.د.محيي الدين حميدي، وزميله. ط . جامعة الملك سعود . الرياض ١٤٢١هـ.
(٥٧) نحو النص ؛اتجاه جديد في الدرس النحوي. د.أحمد عفيفي .ط. مكتبة زهراء الشرق. القاهرة ٢٠٠١.
(٥٨) نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب.د.مصطفى النحاس.ط١ذات السلاسل . الكويت ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م .
(٥٩) نحو النص ؛ مبادئه واتجاهاته الأساسية في ضوء النظرية اللسانية الحديثة.نعمان بوقرة . بحث منشور في مجلة علامات في النقد. مج ١٦. ج١٦.جدة ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م
(٦٠) النص والخطاب والإجراء.روبرت. دي .بوغراند . تر. د.تمام حسان . ط .عالم الكتب.القاهرة ١٩٩٨.
(٦١) النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي. فان دايك. تر.عبد القادر قنيني. ط أفريقيا الشرق. بيروت – الدار البيضاء ٢٠٠٠
(٦٢) نظرية الأدب . هنري وليك، و أوستين وارين . تر. د.عادل سلامة. ط. دار المريخ. الرياض ١٩٩٢
(٦٣) النظرية البنائية في النقد الأدبي . د. صلا ح فضل. ط١ دار الشروق. القاهرة ١٩٩٨.

(٦٤) نظرية التلقي .روبرت هولب. تر. د.عز الدين إسماعيل . ط١ النادي الأدبي الثقافي بجدة
(٦٥) نظرية اللغة في النقد العربي . د. عبد الحكيم راضي . ط . مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٠.
(٦٦) نظرية النقد الأدبي الحديث. د. يوسف نورعوض. ط١دار الأمين القاهرة .١٩٩٤.
(٦٧) النقد الأدبي والعلوم الإنسانية. جان لوي كابانس. تر. د. فهدعكام ط. دار الفكر. دمشق ١٩٨٢
(٦٨) النقد العربي ؛ قراءة ثانية.د.مصطفى ناصف. ط.عالم المعرفة.الكويت ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م
(٦٩) النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري . د. نعمة رحيم العزاوي .ط .بغداد ١٩٧٨.
(٧٠) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز . فخر الدين الرازي. تح. د. بكري شيخ أمين ط١.دار العلم للملاين .بيروت ١٩٨٥.
(٧١) وظيفة الألسن و ديناميتها . أندري مارتينيه . تر. نادر سراج. ط١. دار المنتخَب العربي . بيروت١٩٩٦.

❑❑